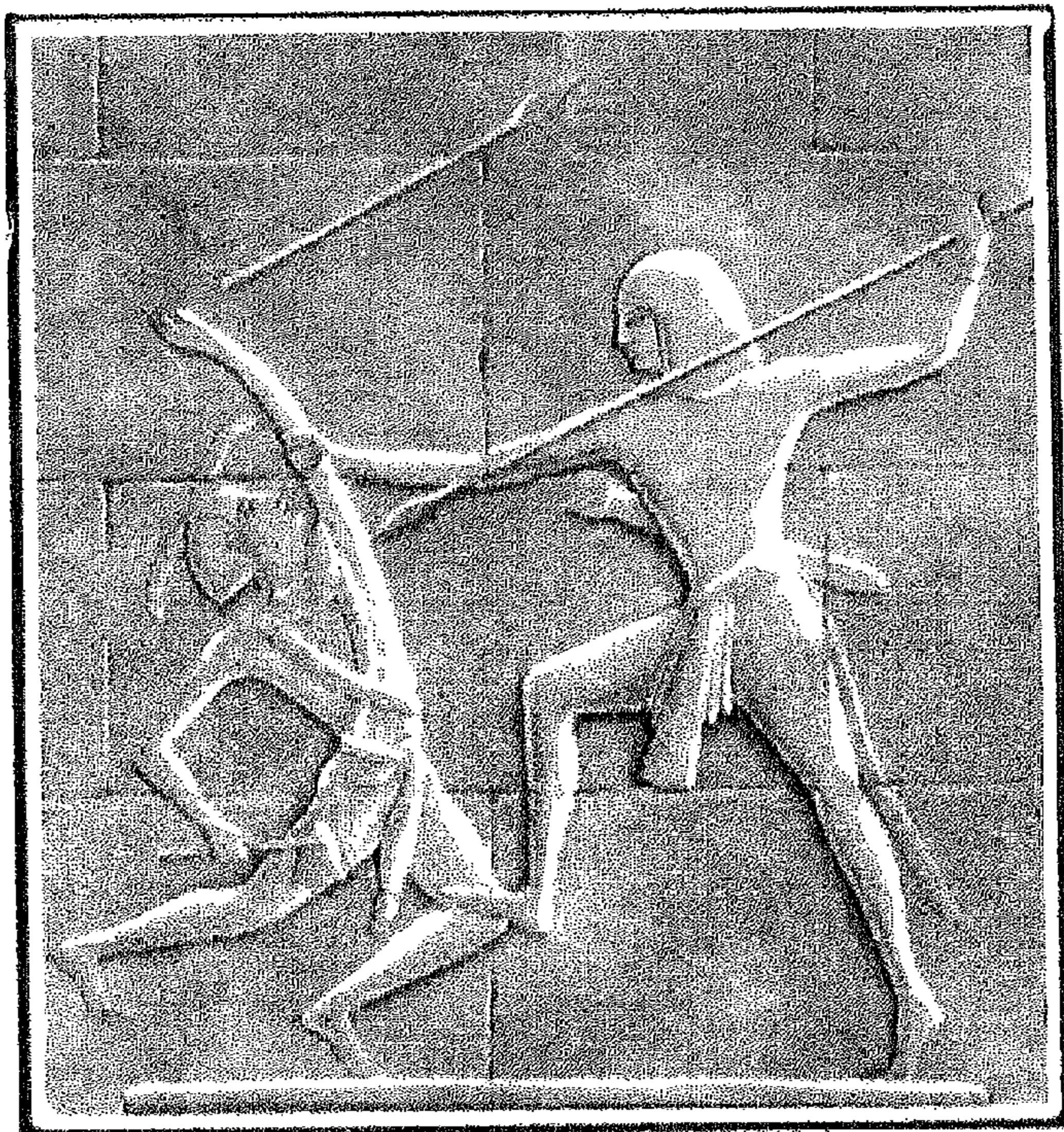


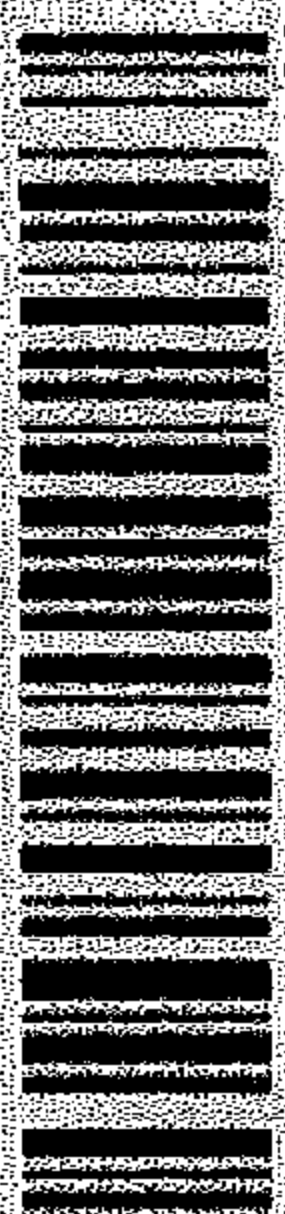
سلسلة الحملات الحربية عبر التاريخ

الحملات الحربية في فلسطين

إبراهيم بدوي الجيلاني



0137669



Bibliotheca Alexandrina

سلسلة الحملات الحربية عبر التاريخ



الحملات الحربية في فلسطين

الناشر



إبراهيم بدوى الجيلانى

سلسلة الحملات الحربية عبر التاريخ

الحملات الحربية فى فلسطين

الناشر



رسوم الغلاف :- هانى عبد الهادى

تصميم الغلاف :- سناء قيشاوى

رقم الإيداع :- ٩٨/٧٥٨٤

الترقيم الدولى :- 8-381-276-977

جميع الحقوق محفوظة للتأشير

الناشر

المكتب العربى للمعارف

١٠ شارع الفريق محمد رشاد حسن

ميدان الحجاز - مصر الجديدة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت/ ٢٤٢١٥٢٦ - ٢٤٣٤٣٩٨

فاكس / ٢٤٨٨٦٥٣

مقدمة

تُعد دراسة الحملات الحربية عبر التاريخ، ولا سيما ما دار منها في فلسطين الحبيبة قلب الأمة العربية والإسلامية، موضوعًا بالغ الأهمية جيلًا بعد جيل . ومن المعروف أن الفاتحين من آشوريين وفراعنة وفرس ومقدونيين ورومان دخلوها من الجنوب، وكذلك فعل القادة العرب والمسلمون الذين تقدموا في فتوحاتهم على محور محاذٍ لأقدم الطرق العالمية التي ربطت بين المدن والحصارات في الأزمنة الغابرة، فهو يخترق وادي عربة في جنوب البحر الميت للغور ويتجه نحو صحراء النقب، ويمرّ بالسهول الساحلية غرب جبال القدس الصخرية، ويقطع جبال الكرمل عبر ممر منخفض، ثم يلتقى شمالاً بحرج ابن عامر نسبةً إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح (رضي الله عنه)، وليس "يزرعيل" الدخيل. إنها أماكن وأزمنة تعيد لنا ذكريات أثيرة إلى نفوسنا، وحرى بنا وبأجيالنا الصاعدة أن نتبين حقائقها ولا ندع الأعداء يشوهونها.

لاشك في أن مبادئ الحرب تتطور وتتبدل على مر العصور، ولكن ذلك لا يمنعنا من مراجعة التاريخ العسكري، والاستفادة من التجارب المناسبة التي نتفعا بشكل أو بآخر. إن جغرافية الأرض هي التي تقرر مسيرة الحملات البرية في كل زمان ومكان. ولا نغالي إذا قلنا بأن الأرض قناة تتساب فيها القوات الغازية، دون إغفال حسناتها الطبوغرافية، فكانت فتوحات:

الفصل الأول

حملة عمرو بن العاص

(عام ١٣ هـ / ٦٣٨م)

مقدمة:

عادت قوات الخليفة منتصرة من حروب الردة، وأحسّ أبو بكر أن جند الإسلام في توقي زائد لمواصلة الجهاد، وأخذ عمرو ينظر ويطل النظر إلى بلاد الشام، حيث استشرت شرور الجاهلية وأصاب بقية أهلينا القاطنين في البيد والحضر تحت حكم الأجنبي فيما وراء أطراف الجزيرة العربية. وأشار عمرو إلى أنه مازال أناس لم يُطعموا الإيمان، وقد دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم (١) بالحكمة والموعظة الحسنة فأبوا وتمادوا في الشر تملقا للأجنبي. وعلى الأثر امتد جناحا النسر الفاتح بطوى أراضى "الفرس" شرقا و"الروم" غربا، فانفرد جناح نحو العراق بقيادة خالد بن الوليد، كما انفرد الجناح الآخر نحو الشام (٢). وكان عمرو يود أن يكون قائدا للجناح المقابل لجناح خالد بن الوليد، ولكن الخليفة ارتأى أن يقسم الجناح الغربي إلى أربعة جيوش صغيرة: أحدها يتقدم إلى حمص على نهر العاص بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، والثاني يتجه إلى دمشق على نهر بردى بقيادة

١- سبق لجيش أسامة بن منقذ أن نفذ ما كلفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوطىء بخيله "الداروم" من أرض فلسطين (راجع كتابي المعنون: جند الإسلام- الفصل السادس (ج)).

٢- قسمها العرب إلى سبعة أجناد: والأردن ودمشق وحمص وقنسرين والعواصم والثغور، وحاليا يطلق على العاصمة دمشق اسم الشام أيضا.

وحديث بالذکر أن هذه الجيوش سبقت وفق خطة سوقية بارعة، قل من أبدع مثلها عبر العصور، وهذا ما نوه عنه الجنرال فون دركولتز (Von Dercoltz)، أحد كبار القادة الألمان في مؤلفاته العسكرية.

يزيد بن أبى سفيان، والثالث يقصد إلى وادى نهر الأردن بقيادة شرحبيل بن حسنة، والرابع يزحف نحو فلسطين بقيادة عمرو بن العاص الذى أوصاه الخليفة أن يكاتب أبا عبيدة، وينجده عند الحاجة ولا يقطع أمرًا إلا بمشورته. فأصبح أبو عبيدة يؤدى مهمة القائد العام على غرار ما هو متبع حاليًا.

بلغ تعداد هذه الجيوش الأربعة، قبل وصول المدد وإعادة تنظيمها فى مجموعة جيوش فيما بعد، خمسة وثلاثين ألف مقاتل، خرجوا جميعهم من الحجاز وهم يرددون الوصية المشهورة: "لا تخونوا، ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له، وسوف تقدّمون على قوم يأتونكم بأنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم شيئًا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رعوهم وتركوا حولها مثل العصائب! فاخفّوهم بالسيف خفّاء، اندفعوا باسم الله".

ولا غرو فقد ترتبت سوقية العرب على حشد أربعة جيوش، لكل منها هدف معين ويساند أحدهم الآخر، ولم يفتن العدو إلى هذه السوقية إلا بعد حين. وفيما يلى نبذة عن القوات المسلحة لدى الجانبين:

القوات المسلحة العربية

تشكل الجيش العربى فى صدر الإسلام من المجاهدين ورجال القبائل المتطوعين الذين لبوا دعوة الجهاد فى سبيل الله. وكان الجندى

المسلم رشيق الجسم، صلب العود، خشناً يتحمل المشاق، متمرساً بالنزال فى مختلف الظروف، خفيف الحركة غير متقل، يباغت عدوه كالصاعقة. وقد ساعده فى ذلك طبيعة البيئة التى نشأ فيها، ولم يكن العمر محدداً لأن واجب الجهاد مفروض على كل قادر. انتظم هذا الجيش فى كراديس ذات أمجاد حسب كل قبيلة وتحت قيادة رئيسها أو شيخها، أما الفرسان فكانوا يُجمعون بإمرة قائد واحد. كان الجيش مؤلفاً من المشاة والخيالة، وتسليحه لا يختلف كثيراً عن تسليح القوات المعادية. غير أن العرب لم تستعمل الدرع لأنه يقيد حركة الفارس والفرس معاً ويزيد فى أثقال الجيش. ومن هناك كانت حركة الروم بطيئة وجعلتهم يصلحون للدفاع أكثر منه للهجوم. أما العرب فتميزوا بخفة الحركة، وهذا مبدأ برزت أهميته على مر العصور لا سيما فى وقتنا الراهن، وحققوا بذلك قابلية التنقل السريع والتعاون فيما بين الخيالة والمشاة وتشكيل الاحتياط وعدم ترك نيول فى مراحل التقدم والانسحاب والالتفاف وقطع خطوط المواصلات. ولكنهم فى مراحل الثبات فى وجه الأعداء أو حصارهم فإنهم سرعان ما يبتكرون الوسائل الفعالة من حفر خنادق واستحكامات (كما فى أحد) أو استعمال المجانيق (كما فى الطائف). وقد أحصى الطبرى عشرين منجنيقاً نصبه العرب على مدينة نهر سير، وذكر أن أبا عبيدة وخالد بن الوليد حاصرا دمشق سبعين يوماً واستخدموا خلالها المجانيق. وقد بدأ فى العصر النبوى ترتيب الجيش على التنظيم الخماسى، قلب وميمنة وميسرة وساقة ومقدمة، وأدخل الإسلام نظام الصف فى المعركة وألغى نظام الكر والفر.

القوات المسلحة المعادية

كانت الخدمة في الجيش الروماني البيزنطي إجبارية تُفرض على كل رجل يتراوح عمره ما بين سبعة عشر عامًا وخمسين عامًا مما جعلهم يحترفون الجندية كمرتزقة. وكانت التشكيلة الرئيسية تُسمى لجيون "Legion" (١) وهي تعادل مجموعة لواء. وقد قُسم الجيش إلى الوليت (قوات المشاة الخفيفة من أصغر الجنود سنًا وأحدثهم في الخدمة) والهاستر (جنود المشاة الثقيلة المدربين جيدًا) والبرنس (الجنود الشجعان المتمرسون بأساليب القتال) والترير (الجنود الذين أدوا خدمات جليلة) وأخيرًا الفرسان الذين سُلحوا بالسيوف ودرعوا وخيلهم بالدروع الحديدية. أما صنوف المشاة فكانت مسلحة بالسيوف والرماح القصيرة والفتوس والنبال. كان الروم يضعون قوات للمشاة الخفيفة (الوليت) في الخط الأمامي وخلفهم الهاستر ثم البرنس وأخيرًا الترير. أما الخيالة فكانت تُوزع على الليجيونات على غرار الأسلحة المساندة التي تُلحق بالألوية لتصبح مجموعات ألوية. وكان الفرسان يقاتلون على الجوانب - - لحماية الأجنحة - أو في الأمام حسبما يتطلب الموقف الحربي.

محور التقدم

تسلم عمرو قيادة جيشه الذي لم يتجاوز تعدادُه تسعة آلاف مقاتل معظمهم من أهل مكة والطائف وهوزان وبنى كلاب، وعُيِّن له محور التقدم: المدينة - تبوك - العقبة - غزة - بيت المقدس. وكان هذا الجيش أقل تعرضًا لأن الميمنة حمتها توالى تقدم الجيوش العربية

١ - أطلقت هذه التسمية على الجيش العربي الأردني: "Arab Legion" قبل تعريبه.

الأخرى، كما كانت ميسرته مستندة إلى البحر الأبيض في حالة احتلال فلسطين. سار عمرو بمحاذاة ساحل البحر الأحمر حتى أشرف على أيلة (أم رشرش/إيلات مقابل العقبة). وبعد أن أعاد تنظيم جيشه الصغير واصل تقدمه، وأرسل طلائعه عبر وادي عربة وهي البوابة التي دخل منها فلسطين وخاض أولى معاركه المظفرة في يوم ٢٤ من ذي الحجة عام ١٣ هجرية (الموافق ١/ ٣/ ٦٣٤م)، ثم وقعت معركة دائن بإمرة أبي أمامة الصدي بن عجلان الباهلي الذي دحر قوة معادية بقيادة سرجيوس (Sergius) حاكم جنوب فلسطين بالقرب من خربة الدمثية الحالية الواقعة شرق بلدة دير البلح على مسافة ٥ كم. وقد أدى هذا النصر إلى فتح غزة كأول مدينة فلسطينية استردت عروبتها، ثم تبعها مدينة عسقلان بمساعدة القبائل العربية المتصصرة في الشمال الذين انضموا إلى أشقائهم القادمين من الجنوب في جيوش الفتح تخلصاً من الاحتلال البيزنطي (١) وجوره. وذكر الواقدي في كتاب "فتوح الشام" أن عمرو ابن العاص صادف في أثناء تقدمه عدو بن عامر قادمًا من الشام وكان خبيرًا بالدروب والمسالك، وعلم منه بوجود تحشدات معادية تربو على مائة ألف مقاتل شاهد جميع أعلامها وراياتها وهي معسكرة فوق جبل شاهق الارتفاع يدعى "الأجم" بقيادة روبيس. وكان هرقل قد أرسل هذه الحشود وغيرها عندما أخبره أحد رعاياه من التجار القادمين لتوهم من المدينة أنه رأى خليفة المسلمين يتفقد الجيوش وسمعه يوصي أحد قادة هذه الجيوش وهو يقول "عليك بفلسطين وإيليا" فتوقف عمرو عن التقدم واجتمع بجنده للتشاور، واستقر رأيه على عقد راية وإعطائها إلى

١- أطلق العرب اسم "الروم" على الإمبراطورية الرومانية الشرقية، واسم "بحر الروم" على البحر المتوسط.

عبدالله بن عمر بن الخطاب وقد ضم إليه ألف فارس وأرسلهم أمامه كحرس مقدمة. وعندما جدوا في السير بقية يومهم إلى الصباح لاحظ لهم غيرة انكشفت عن بضعة آلاف من الأعداء بعث بهم روبييس لكشف أخبار المسلمين. ورأى عبدالله بن عمر أنه من الأصوب عدم إمهالهم فررد القوم شعارهم وكان في فلسطين "لا إله إلا الله محمد رسول الله، يا رب انصر أمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم". ثم حمل عكرمة بن أبي سهل وتبعه سهل بن عمرو والضحاك واستنفروا رجالهم فحمل المهاجرون وتلاهم الأنصار واحتدم القتال. قال عبدالله بن عمر "بينما أنا في الوقعة، إذ نظرت بين القوم بطريقا عظيم الخلقة وهو كالحائر البليد، يركض يميناً وشمالاً، فقلت إن يكن لهذا الجيش عين فهذا عين الجيش وصاحب الطلائع وهو مرعوب من الحرب. فلما حملت عليه ومددت قناتي إليه نفر فرسه من الرمح، فتقربت إليه وأوهمته أني أريد الانهزام ثم عطفت عليه وطعنته. فوالله لقد خيل لي أني ضربت بسيفي حجراً وسمعت طنين السيف حتى حسبت أن سيفي انفصل، وإذا هو صريع. ثم عطفت عليه وأخذت لامتة، فلما رأيت الأعداء أن صاحبهم مجندلاً داخلهم الفزع والهلع. وصددهم المسلمون في الضرب والقتال، فله در الضحاك والحارث، لقد قاتلوا قتالاً شديداً ما عليه من مزيد. فما كان غير قليل حتى انهزم الأعداء من بين أيديهم هاربين". وفي هذه المعركة استولى المسلمون على ٦٠٠ أسير، ضمنهم ثلاثة أسرى من الأنباط يتكلمون العربية واستنطقهم عمرو وتأكد من حشود الروم. فطن عمرو إلى الخطر الذي يتهدد، وأخذ يتراجع وكتب إلى أبي بكر بالأمر وطلب المدد، كما كتب أيضاً إلى قادة الجيوش العربية الأخرى ويحذرهم من الخطر

ويطلب منهم أن يحتشدوا فى مكان واحد. ويُجمع المؤرخون الممشرقون على أن جيشًا معاديًا كبيرًا تصدى لقوات عمرو الصغيرة فانسحب تدريجيا بمحاذاة نهر الأردن فى الضفة الغربية، وقد أحسن صنعًا بهذا الانسحاب المنظم.

التحول من الانسحاب إلى الهجوم

على حين غرة وصل خالد بن الوليد بقواته الظافرة من العراق ونزل بجنوب سوريا، واجتمع بقيادة الجيوش الثلاثة، أبى عبيدة ويزيد وشرحبيل، واتفقوا أولاً على نجدة عمرو بن العاص الذى كان لا يزال فى فلسطين يتحایل للإفلات من خصمه القوى. والظاهر أن الروم عندما عرفوا تقدم العرب نحو فلسطين تحولوا إلى حصن أجنادين حيث وقعت بالقرب منه أولى معركتين. ومكان أجنادين غير معروف بالضبط حتى الآن، وجاء ذكرها فى بعض المراجع أنها بين بيت جبرين والرملة، ويرجح أنها قرب قرية عجور. وانتهت المعركة فى أجنادين بانتصار العرب انتصاراً موضعياً. اجتاز عمرو نهر الأردن وانضم بجيشه إلى الجيوش العربية الأخرى تحت إمرة القائد العام خالد بن الوليد. وبعد أن اشترك عمرو فى معركة اليرموك الفاصلة، وأسهم فى احتلال دمشق، أصدر إليه الفاروق أوامره بالعودة إلى فلسطين لإتجاز الفتوح فيها على أن يساعده شرحبيل بقواته، ولاشك أن توحيد القيادة كان أعون على توزيع العمل بين القادة فى أنحاء مسرح القتال. استقل عمرو بغزوات فلسطين وما جاورها، وتم على يديه فتح أول مدينة غرب نهر الأردن مقابل مصب اليرموك وهى مدينة بيسان، ثم استولى على مرج عيون وطبرية وحيفا وجنين ونابلس واللد والرملة وبيت جبرين وعمواس والسهل الساحلى. كما

فتح شرحبيل مدينة عكا ولم يبق للروم إلا حصون ثلاثة: أجنادين وقيسارية وبيت المقدس.

قسم عمرو قواته إلى ثلاث مفارز. وتولى هو محاصرة حصن أجنادين بين الرملة وبيت جبرين، وأرسل قوة تسبقه إلى بيت المقدس، وأوكل إلى معاوية بن أبي سفيان مهمة احتلال حصن قيسارية. أصبح عمرو وجهًا لوجه أمام أريطيون، فكان ينازله بالجرأة تارة وبالمكيدة تارة أخرى. وكتاهما من الصفات التي اشتهر بها عمرو. واتفقت المصادر على التتويه ببلاء عمرو في هذه الغزوات، فوضح منها جميعًا أنه لم يكن يألو ذلك العمل الجسام الذي وكل إليه جهداً من شجاعته ولا من تدبيره. وربما جشمته موارد التدبير مخاطر لم يتجشمها في موارد القتال. ومن أمثلة ذلك أنه لم يشف غليله مقدار المعلومات التي حصل عليها نتيجة للاشتباكات الأولية التي قصد منها جس نبض الأعداء كي يرسم خطته ويعبئ جيشه. ولم يقنع بالمعلومات التي أخبرته بها العيون عن وضعية التحصينات وقوة العدو غير كافية، فعزم على أن يعتمد على نفسه ويدخل معسكر العدو متكرراً كأنه رسول للتفاوض.

استطلاع الحصون من الداخل

ذهب عمرو إلى مقر والي فلسطين، واستأذن عليه مدعيًا أنه موفد من قبل عمرو بن العاص قائد الحملة، فأذن له، ودخل عمرو عليه محيياً، فصعد "أريطيون" فيه نظرةً علّه يكتشف ما في قرارة نفسه ثم دارت بينهما المناقشة التالية:

- هل عمرو هذا داهية كما يقولون؟

- عمرو يا سيدى سهم من سهام الله، يعرف أين يضع قدمه وأين يوجهها، وما دخل فى شئ إلا خرج منه.
- متى تعلمتم الحرب؟! إنا عهدناكم أمة بدوية لا تعرف إلا مواقع الغيث ومواطن الكلا.
- ليس فينا يا سيدى إلا فارس أو محارب، فدربتنا صحراؤنا على احتمال المكاره، وعلمتنا الطعان والضرب، وأرشدتنا إلى مقاتل الأعداء، ولا تنس أنكم انتصرتكم بسواعدنا قبل الإسلام، وسيوفنا باليرموك شاهدة ناطقة.
- ما هى قوتكم؟
- لا أدرى يا سيدى، فما أنا إلا رسول عمرو، جئت أبلغك رسالته وأدعوك بلسانه إلى الإسلام، فإن أبيت فالتسليم ودفع الجزية، وإن أبيت فالحرب.
- الحرب!؟ وهل تظنون أنكم ستغلبون أريطبون؟
- هل أريطبون أعز على سيوف المسلمين من قادة الروم الآخرين. إن السيوف التى أصابت أفئدة جنودكم ستصيب أفئدة من يقف فى طريق جيش عمرو، إنا دعاة سلام وإسلام، نجاهد من أجل الحق وإعلاء كلمة الله.
- وما هى خططكم؟ لقد رأينا منكم فنونا لم نعهدها فيكم، وأى الوجوه تلبسونها ساعة المعركة؟ لقد حدثنا من قاتلوكم أنكم تلبسون وجوها غير وجوهكم وجلودا غير جلودكم، وتمسكون سيوقا غير سيوفكم، فكيف تصنعون ذلك؟

- هي وجوه المسلمين في الحرب باسمه في السلم. أما السيوف والجلود فهي سيوف المسلمين وجلودهم كساها الإسلام رهبة وألبسها جلالاً. أما الخطط فلا أدري يا سيدي فيما يفكر عمرو؟ ولا أعلم سوى أنني رسوله إليك.

اندهش أربطون من هذا الذكاء وهذه اللباقة، وهو لا يدري حتى الآن أنه عمرو نفسه، وبعد أن أطرق ملياً صاح في كبرياء:

أبلغ قائدك أننا قد جمعنا له الجموع وأعدنا له العدة، وسوف لا يجد عندنا إلا ضرباً وطعناً لم ينقه من قبل! أبلغه أن قوة الروم العاتية قد احتشدت في جيش أربطون، وأن فلسطين ستكون الفاصلة بيننا وبينه، لا إسلام ولا جزية، بل السيف والرمح، أسمعت؟

ولم يبد على عمرو ما ينبئ بحقيقته، إلا أن الأربطون قد أخذ بحديثه ونكائه وجعل يتفرس هذا العربي الذي جاءه موفداً من قائد المسلمين، ويستجمع كل ما يعرفه عن صفات عمرو، حتى رجح لديه أنه قد يكون "عمرو بن العاص" بنفسه، وإلا فهو أحد الأمراء ولا ينبغي له أن يفلت من يده. فأوحى إلى أبواب الحصن أن يقتله إذا مر به خارجاً، ثم أظهر البشاشة له، وأمر له بجائزة كبيرة، فأنطلق يريد الباب. وقبل أن يصله دنا منه عربي شهم من نصارى غسان في بلاد الشام وهمس في أذنه بأن يحسن الخروج كما أحسن الدخول. وكان هذا العربي قد علم ما أضمره أربطون، وانتظر حتى خرج عمرو ثم ألقى إليه هذه العبارة واثقاً من نكائه، وتركه يردد في نفسه "أحسن الدخول فأحسن الخروج". ولم يطل الوقوف بعمرو، فرجع بجائزته سريعاً إلى أربطون. واستأذن عليه فدهش لعودته وصاح مستفسراً عن حاجته أو عما نسي.

- لم أنس يا سيدى شيئاً ، ولكننى عدت لأكرر شكرى على هذه
الجائزة العظيمة، وأرجو أن يصلك شكر غيرى على نعمتك
وجزيل كرمك.

- شكر غيرك؟! إن الجائزة لك وحدك!

- وكيف أستطيع أن أختص بها، ولى أبناء عم وإخوة عشرة على
الأقل، وقد نظرت فى هذه الجائزة فرأيت أنها لا تعجبهم جميعاً،
فعدت إليك لأرجوك لهم، فقد أحببت أن يعم معروفك.

- نأمر بعشرة أضعاف هذه الجائزة وتحملها إليهم.

- وحمد تلك الألسنة يا سيدى؟ ألا تحب أن تسمع شكرها جميعاً،
إن لكل منهم لساناً مثل لسانى وجنائاً مثل جنائى، إذا كان سرك
هذا اللسان وذلك الجنان، فسوف تجد منهم أكثر مما رأيت منى.

- ترى أن تحضرهم إلى هنا؟

- نعم يا سيدى، لتسألهم ويجيبوا، وتعطيهم ويشكروا، ثم يعودوا
بثناء ليتردد بين العرب وأنت عليم بأثر هذا الثناء.

- حسناً أيها الرسول اللبق! اذهب وانتتى بهم.

وذهب عمرو يبتدر الباب، وقد بعث أريطبون إلى البواب أن
يتركه، ورعوس عشرة من عظماء العرب تتراقص فى مخيلته يخالها
تطير على حد سيفه غنيمة من جند عمرو، معتقداً أن هذا الرسول
سيقبل بهم إلى حتفهم. ففتح الباب واجتازه عمرو فى جد واهتمام أقنع
من شاهده أنه عازم على العودة بإخوته وأبناء عمه. وعندما ابتعد
عن الحصن التفت إليه ضاحكاً، ورفع يديه شكراً لله على هذا الإلهام

الذى يسعفه فى أخرج المواقف. وبعد أن وصل إلى معسكره نثر الجائزة بين جنده، ووجههم تفيض عجبًا وعمرو يقص عليهم ما كان.

معركة أجنادين الفاصلة

استطاع القائد العربى أن يتعرف بنفسه على كل ما خفى عليه واكتشف مواطن الضعف فى الأسوار من الداخل، مما أتاح له أن يضع خطة محكمة ويرتب صفوف الجيش المختلفة. ثم زحف بجنده إلى جيش أريطبون فى أجنادين، واشتبك معه فى قتال عنيف، وشدد الحصار على الحصن حتى أحس أريطبون وجنوده أن لا قبل لهم بعمرو وجيشه، ففروا فى ثمانين ألفًا ملتجئين إلى إيلياء (القدس). وانتهت معركة أجنادين الفاصلة بانتصار العرب انتصارًا حاسمًا فى عام ٦٣٨م (١٥ هجرية) وهى غير معركة أجنادين الأولى التى وقعت قبل ذلك بسنتين. لقد كانت معركة أجنادين هزيمة لاستراتيجية هرقل التى اعتمدت الهجوم العام المضاد، ولكن عندما انتهى خبرها إليه سقط فى يده وامتلات نفسه رعبًا فنقل مقر قيادته من حمص إلى أنطاكية (١) وهو الذى كان يريد نقلها إلى موقع أمامى فى فلسطين.

حصار القدس

لم يغب عن ذهن عمرو ما لعمليات المطاردة من أهمية فى استثمار الفوز فتقدم على الفور فى إثر فلول العدو وضرب حصارًا محكمًا على أسوار القدس. قال المسيب الغزاوى "ما نزلنا ببلد فى فتوح الشام فما رأينا أكثر زينة ولا أحسن عدة من بيت المقدس. نزلنا

١- ابن الأثير: ج (٢) - ص (٤١٧).

بإزائهم ومضت ثلاثة أيام فلم يكلمنا منهم أحد، غير أن حرسهم شديد وعدتهم كاملة". وقد حصنوا أسوارهم بالمجانيق والغرادات والطوارق، وتسليح المدافعون بالسيوف والدرق والجواشن والزرذ الفاخر. وفي رابع يوم الحصار تنكب يزيد بن أبى سفيان سلاحه ودنا من السور ومعه مترجم لدعوة أهل المدينة إلى الإسلام أو أداء الجزية أو الحرب فلم يستجيبوا واستمر الحصار على أشده طوال أربعة أشهر والمسلمون صابرون على البرد والتلج والمطر حتى علم المحاصرون أن لا جدوى لهم من الاستمرار على هذا الحال فطلبوا الصلح على أن يوقعه الخليفة بنفسه فأرسل إليه عمرو يعلمه بذلك. وكان عمر بن الخطاب قد أقبل على الشام حينما أبطأ الحصار، وكتب إلى القادة الآخرين الذين لا يجدون فى نواحيهم كبير قتال أن يقابلوه فى موقع الجابية. فلما بلغته رسالة عمرو بن العاص أسرع إلى القدس.

فتح مدينة أولى القبلتين

وعندما أشرف عمر بن الخطاب على القدس اجتمع بالجند وخطب فيهم لرفع روحهم المعنوية، وقبل صلاة الظهر قال له الناس: "يا أمير المؤمنين اسأل بلالاً أن يؤذن لنا" فقال له عمر: "يا بلال إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون أن تؤذن لهم وتذكرهم أوقات نبيهم صلى الله عليه وسلم". فصعد بلال إلى قمة جبل المكبر كما يؤكد أهل قرية صور باهر أباً عن جد وباشر بلال بالتكبير. وعندما وصل فى أذانه "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله" بكى الناس بكاء شديداً حتى كادت قلوبهم أن تتصدع عند ذكر الله ورسوله. ثم تحرك عمر بن الخطاب حتى وقف بإزاء السور وتأكد المحصورون منه، ففتحوا الباب وخرجوا إليه مسرعين يسألونه العهد

والميثاق والذمة ويقرون له بالجزية فطمأنهم وعادوا إلى الداخل ولم يغلقوا الباب، ورجع عمر إلى معسكره فبات ليلة ثم دخل المدينة صباح يوم الإثنين وأقام بها إلى يوم الجمعة وسط محراب وهو موضع مسجده اليوم. وتسلم المدينة رسمياً من البطريرك صفرونيوس "Sophronius" وتعهد لأهل المدينة بأن لا يبقى معهم أحد من اليهود بناءً على طلبهم. ثم كتب عقد الصلح (العهد العمرية/ وثيقة الأمان)، وقد جاء في العقد ما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان - أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها - لا تشكن ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص (الصوص) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصليبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صليبهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد - وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية - ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة
١٥ هـ.

عندما اتفق الطرفان على هذه الشروط وتم توقيعها طلب عمر من
البطريرك أن يدلّه على مسجد داود، فأسرع البطريرك وسار مع
الخليفة الذى كان يمشى وراءه أربعة آلاف من رجاله إلى أن وصلوا
إلى كنيسة القيامة، فأشار إليها البطريرك بأنها فى موضع هيكل داود
فاحتد عمر وقال بغلظة: لقد كذبت، وسارع بمغادرة المكان عندما
حان وقت الصلاة، فدعاه البطريرك لأن يصلى حيث يقف فى الكنيسة
ذاتها، ولكن عمر رفض أن يصلى هناك. ثم أخذوه إلى كنسية
قسطنطين وصلى على مرمى حجر منها. وعندما سأله البطريرك عن
رفضه الصلاة فى الداخل، أجاب: أخشى أن يقول المسلمون هنا صلى
عمر ويتخذوها مسجداً. ولذلك شيد فى الخارج مسجداً لا يزال قائماً
(يسمى جامع عمر) مقابل كنيسة القيامة الآن. إن هذا التحفظ النزىه
فى كتابة الميثاق، لوضع حدا لما يخامر أصحابه من الطمع، لا يمكن
إلا أن ينتزع إعجاب العالم بالفاروق. ومهما بلغنا من التمدن فى هذا
القرن فإننا لا نتصور أن هناك ما هو أشرف من هذه الصفات التى
تحلى بها المسلمون عندما فتحت القدس سلماً لأول مرة فى التاريخ،
ولم يتكرر فتحها سلماً أيضاً إلا فى عهد صلاح الدين. توجه الموكب
إلى (صهيون) التى قال عنها البطريرك إنها مسجد داود فأجابه الخليفة
بحدة مرة أخرى: هذا كذب. ثم توجهوا إلى مسجد بيت المقدس حتى
وقفوا بما يسمى (باب محمد) الذى كانت القمامة تسد بابه ، وهنا قال
البطريرك: لا نستطيع الدخول إلا زحفاً على الأيدى والركب. فقال
عمر: فليكن ذلك. تقدم البطريرك ولحقه عمر وباقي الموكب وخروا

على الركب وزحفوا حتى نفذوا إلى ساحة المسجد حيث استطاعوا أن يلقوا منتصبين. وبعد أن تفرس عمر بالمكان طويلاً ارتفع صوته قائلاً: والذي نفس عمر بيده إنه لمسجد داود الذي وصفه لنا نبينا عليه السلام في الإسراء والمعراج. وهذه هي الصخرة التي ذكر النبي أن النصارى طمروها بالقمامة نكاية ببنى إسرائيل، ثم هبط عمر إلى الأرض وأخذ يجمع القمامة ويحملها في كفه ليرميها بعيداً. واقتدى به سائر المسلمين حتى نظفوا المكان وبانت الصخرة للعيان. ولما انتهوا من ذلك طلب منهم أن لا يصلوا هناك حتى تنزل ثلاث زخات من المطر فتغسلها.

وهناك رواية أخرى تقول إن عمر طلب من كعب الأحبار اليهودي والذي كان قد أسلم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: يا أبا إسحق ألا تعرف مكان الصخرة؟ فأجاب كعب: بلى إنني أعرفها، إنها تبعد كذا وكذا من الأذرع عن السور الذي يحاذي وادي جهنم (وادي قدرون) وعليها اليوم تل من القمامة، ولدى البحث في المكان الذي عينه كعب ظهرت الصخرة. ثم سأله عمر: أين نبى المسجد؟ فأجاب كعب: خلف الصخرة حتى تجتمع قبلتا محمد وموسى. فاحتد عمر وعنفه قائلاً: إنك مازلت تحن إلى يهوديتك السابقة. أما أنا فأرى أن أنسب مكان لبناء المسجد هو قبليها لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قبلة مساجدنا في صدورنا - إننى لم أؤمر باستقبال الصخرة بل باستقبال الكعبة. وأمر ببناء المسجد وهو مكان المسجد الأقصى الحالى الذى وسعه الوليد بن عبد الملك فيما بعد.

حين دخول جند الإسلام إلى بيت المقدس وهم يرتلون الآية الأولى

من سورة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] أخذ القائد عمرو بن العاص يبحث عن أريطبون حتى كبر ظنه أنه قد قُتل، ولكنه عرف فيما بعد أنه فر إلى مصر ليحشد جيشًا آخر ينازل به العرب، فأطرق هذا القائد الكبير يفكر، وأدرك بثاقب بصره أن الشام لا تَأمن إلا بمصر، ولا تَأمن مصر إلا بالشام، فاستعد لفتح جديد.

الفصل الثانى

حملة صلاح الدين الأيوبي

(عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م)

مقدمة

لما شب صلاح الدين عن الطوق، زار مصر ثلاث مرات فى جيش نور الدين الزنكى. وكان عمه وزيراً فاطميا إلى جانب منصبه العسكرى فى خدمة نور الدين، ولم يلبث صلاح الدين أن ورث عمه فى الوظيفتين، واستطاع أن يوفق بين الأمور العسكرية والسياسية زهاء السنتين والنصف (٢٣ / ٣ / ١١٦٩ م - ١٣ / ٩ / ١١٧١ م). وهى الفترة التى خبر فيها نظام الدولة الفاطمية وفنونها فى أساليب القتال عن كثب، فزادت خبرته السابقة التى اكتسبها وهو فى خدمة نور الدين. وجدير بالذكر أن الدولة الفاطمية تغلبت عليها الصفة البحرية بحكم إطلالها على الساحل الجنوبى من البحر المتوسط، على عكس الدولة الزنكية النورية، فهى بحكم موقعها الجغرافى دولة برية، وتعد أحد فروع الدولة السلجوقية العظمى التى اصطبغت بالصبغة العسكرية فى حركتها التوسعية إلى البوسفور غرباً وبلاد الشام وأطراف البلاد المصرية جنوباً.

اقتبس صلاح الدين ما لاءمه من النظم الحربية الفاطمية، ولا سيما فى تجنيد المرتزقة من جميع الأجناس. وانصرف إلى أعمال التحصين والإعداد الداخلى وتأسيس قاعدة قوية فى مصر. وعزز البحرية وأنشأ لها ديوان الأسطول وأسند شئونها إلى أمير البحر، أو أمير الماء، وهو المصطلح العسكرى الذى انتقل إلى اللغات الإفرنجية الأخرى فصار

فى الإنجليزىة Admiral وفى الفرنسىة Amiral. أسند الأمور البحرىة البحتة إلى رثىس عارف بالرىح والمجادىف والإرساء وله دراية بمسالك البحار ومجارىها، واختار الحاجب الشىخ حسام الدىن اللؤلؤ أمىراً للبحار الذى كان يطلق عىله مَقْدَم الأسطول. وكان صلاح الدىن ىقسم قواته المسلحة إلى جند احتىاط وعساكر ثابتة. فالجند هم أتباع الأمراء الذىن ىنفرون بهم إلى حروب السلطان مقابل إقطاعاتهم، أما العسكر فهم جيش السلطان النظامى الثابت. وكانوا فى عصر صلاح الدىن فرساناً من الأكراد والترك والتركمان، ىصرف للواحد منهم جزدان وصولق وبقجة وتركاش. واستخدم صلاح الدىن الحَمَام الهوادى لنقل الأخبار، فوزع رجالاً على كل ثغر ومعهم حمام المدينة التى تجاورهم، فإذا ما رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقتة وعلقوه على الطائر وسرحوه إلى المدينة التى هو منها فى ساعته فتنتقل الرقعة من طائر إلى آخر حتى تصل إلى الجهة المطلوبة.

إن المواجهة العسكرية مع الصلىبين تحتم عىله النظر فى تحصىن القاهرة ودعم المنظومة الدفاعىة للمدن أمام أى غزو صلىبى محتمل. فأحاط المدن بأسوار قوية تحمىها من أى عدوان خارجى وخاصة القاهرة، ودعم الأسوار التى بناها الفاطمىون بمزىد من الأسوار والأبراج، وزود القاهرة بقلعة منىعة (عرفت باسمه) تتحكم فى الدفاع عن عاصمة الدولة.

حركة نواة الحملات

غادر صلاح الدىن القاهرة قاصداً دمشق يوم ١١ / ٥ / ١١٨٢م الموافق ٥ من المحرم سنة ٥٧٨ هجرىة فى نصف عسكره لىستقر

فيها ويتخذها قاعدة أمامية يواصل منها هجماته ويكون قريبًا من فلسطين. وترك النصف الآخر لحفظ الثغور والأمن في مصر، قاعدته الرئيسية، التي أمدته بالتموين والرجال. وقد عهد إلى وزير أشغاله إتمام التحصينات التي بدأها حول القاهرة ولا سيما القلعة، وكان محور تقدمه طريق صدر أيلة، عبر سيناء الوسطى.

وقد أظهر لأول مرة في التاريخ القيمة الحربية لهذا الطريق، فشيد على جانبيه القلاع والحصون وأقام له الحاميات، فأمن طريقًا حربيًا خطيرًا، تتلمسه النجدات والقوافل في غدواتها بين شرق العالم العربي وغربه. وعندما وصل إلى عقبة أيلة جاءه البريد باجتماع الصليبيين في مدينة الكرك لقطع طريقه، فاحتاط للأمر وأرسل إلى أخيه ونائبه في دمشق عز الدين يأمره باغتنام فرصة ذهابهم إلى الكرك والإغارة على مواقعهم. فسار إلى طبرية وعكا، واستطاع أن يستولي على دبورية وما حولهما من القرى وعلى قلعة حصينة ذات مركز موقى هام قرب بانياس، وتسيطر على مواصلات الصليبيين وقد أسر ألف صليبي وغنم عشرين ألف رأس من الماعز. ثم واصل صلاح الدين تقدمه بالعساكر المقاتلة وأخذ يشن الغارات هنا وهناك، على حين أمر أخاه تاج الملوك بأن يسير بالأنقال وأصحاب المتاجر يمنا منه، وكان محور تقدمه حتى وقبة شتار والقريتين قرب الشوبك وبلدة الأزرق قرب الكرك حيث التقى بعد أسبوع بأخيه تاج الملوك. ولم يجرؤ أحد من العدو على الاشتباك معه، فاستمر في الزحف حتى لقيه في الطريق عز الدين وأخيرا وصلت قوات الحملة إلى قاعدتهم الأمامية في دمشق يوم الإثنين الموافق ٢٢ / ٦ / ١١٨٢م.

المناوشات الرئيسية

لم يشأ صلاح الدين أن يتحرش بالدويلات والإمارات الإسلامية التي عقد معها هدنة منذ سنتين، ولذا ولى وجهه شطر الصليبيين الدخلاء الذين نقضوا الهدنة ولم ينقطع عدوانهم، فأرسل إلى مصر يطلب إلى أخيه العادل تجهيز الأسطول المصري لمقابلته على الساحل الصليبي، وخرج هو من دمشق مغيرا على نواحي طبرية وبيسان، فتجمع الصليبيون تحت جبل كوكب قرب بصره ورماهم المسلمون بالنشاب فلم يتحركوا لقتالهم بل لجأوا إلى حاميتهم في مفرلا. وبعد أن أثخن فيهم صلاح الدين عاد إلى دمشق وتحول إلى بيروت بعد وصول الأسطول المصري إليها لمحاصرتها. ولكنه تبين له أن إمارة الموصل عقدت معاهدة دفاعية هجومية مع الصليبيين كي يضعوا صلاح الدين بين فكي كماشة.

في سبيل توحيد القوى

فضل صلاح الدين الرحيل عن بيروت والاتجاه نحو مسألة التوحيد للقوى الإسلامية تحت يده ليتفرغ للعدو الدخيل.

وأوقف صلاح الدين الخليفة العباسي على خطته التي وضعها لمواجهة تحالف المواصله مع الصليبيين بفتح جبهات اربع. فأمر أخاه العادل بمهاجمة جنوب فلسطين من ناحية الحدود المصرية، ورتب في رأس الماء بدمشق بإزاء الصليبيين ابن أخيه، وأمر عسكر الشام باتخاذ وضعية الدفاع، أما هو فتحرك بجيشه النظامي المصري صوب حلب والموصل. ومعنى هذا أن صلاح الدين كان قادرا على منازلة أعدائه من المسلمين والصليبيين في آن واحد معتمدا على

قاعدته الرئيسية فى مصر التى أخذت تمده بالأموال والرجال، ومعناه أيضا أن صلاح كان بعيد النظر فى إرجائه إعلان الجهاد الحقيقى ضد الصليبيين إلى ما بعد تصفية مشاكله العظمى مع أمراء المسلمين ليأمن جانبهم ويستعين بهم فى جبهة إسلامية موحدة.

وقد اغتتم أرناط (أرنوك، أمير الكرك) هذه الفرصة وعاد تفكيره فى مشروعه الخاص بغزو مكة والمدينة برا وبحرا. ويبدو جليا أن المسلمين فزعوا أشد الفزع لأنهم لم يعهدوا ببحرهم أى اجنبى. ولا شك أن الخونة من الأدلاء أرشدوهم على المسالك البرية، وقد وصلت هذه الأخبار إلى صلاح الدين وهو على أسوار الموصل. فأوعز إلى أمير البحر بحمل المراكب مفككة إلى السويس، وهناك أشرف على تركيبها فى بداية عام ١١٨٣م واستطاع أن يبىد قوات العدو قبل تحقيق أهدافها. وعندما عاد صلاح الدين إلى قاعدته الأمامية فى دمشق عزم على محاصرة الكرك وتأييب أرناط الذى نجا بأعجوبة من الأسطوال المصرى. فأمر أخاه العادل بمصر أن يستعد لموافاته على حصن الكرك.

استئناف المناوشات

لم يطل مقام صلاح الدين بدمشق بل اتجه إلى شمالى فلسطين وعبر نهر الأردن الفاصل بين المسلمين والصليبيين، واتجه إلى بيسان وأغار عليها، ثم تقدم إلى عين جالوت وخيم بها، على حين تفرقت كشافته فى الطرق المؤدية إلى قلاع الصليبيين لتستطلع أخبارهم فصادفت نجدتى الكوكب والشوبك فقاتلتها وأسرت مائة أسير. أما قوات الصليبيين الرئيسية فاحتشدت بصفورية فى عشرين

ألف راجل وثلاثة آلاف فارس، وسارت لملاقاة صلاح الدين بعين جالوت، فرتب لهم يمنة ويسرة وقلبا وأفرز لهم قوة لمناوشتهم واجتذابهم، ولكن العدو أعطى ظهره إلى الجبل وأحجم عن الإقدام، ووقف الجيشان وجها لوجه خمسة أيام. ورحل صلاح الدين نحو الطور علمهم يخرجون من مكنهم فإذا بهم ينكصون على أعقابهم إلى الناصرة.

وعمل صلاح الدين بمشورة أصحابه بالعودة إلى دمشق فوصلها في نهاية تشرين الأول عام ١١٨٣ بعد أن ضرب من الحصون حصن بيسان وكفر بلا وزرعين وجنين ومن الأبراج عشرة. وبعد أن استراح أسبوعين توجه إلى الكرك وعليها تقابل مع عساكر مصر بقيادة أخيه الملك العادل وحاصر الحصن دون أن يستولى عليه، فرجع إلى دمشق لحضور اجتماع عام لسفراء الأمراء المسلمين. وأهمية هذا الاجتماع السياسي الخطير أنه اعتراف رسمي باحتضان صلاح الدين لفكرة الجهاد واستحقاقه لتزعم كلمتهم، إلا أن الموصل ظلت شوكة إسلامية في ظهره، ففانت عليه فرصة استغلال هذا الاجتماع في مباغثة الصليبيين. ولكنه عاود الكرة على الكرك، وكاد أن يحتله لولا أن زوجة أرناط بعثت له رسالة وهدية عرس ترجوه هدنة قصيرة حتى تتم حفلة زفاف ابنها. فاستغل أرناط هذه الفرصة واستجد بالصليبيين. فتوجه صلاح الدين لمنازلتها في الواله قرب حسان، ولكنها أفلتت منه ودخلت حصن الكرك. ولذلك فضل التوجه إلى نابلس. فأغار عليها واستولى على جنين، ثم عاد إلى قاعدته في دمشق للتفاوض في قضية الموصل، ولم يتوصل إلى نتيجة، فحاصرها مرتين وتم الصلح والقضاء على المعاهدة الزنكية الصليبية التي دامت

أربع سنوات. فتمكن صلاح الدين من حشد عساكر الموصل وسنجار والجزيرة وأربيل وحران وديار بكر في صعيد واحد، فینفث فیها من روحه وطبعها بطابع النظام والطاعة بعد أن كانت متفطرة متقاطعة فی إمارات مختلفة، فحقق بذلك الشرط الأول من حلم توحيد كلمة المسلمين معنویا ومادیا تحت زعامة رجل واحد.

أضحى صلاح الدين سلطانا فی إمبراطورية إسلامية واسعة، أطرافها دجلة والفرات شرقا، وتونس غربا، وأرمينية شمالا، واليمن والنوبة جنوبا. وكون جيشا إقطاعيا إسلاميا بلغ به ذورة المجد والانتصار على الصليبيين رغم ما بهذا الجيش من نقائص تتعلق بالنظام الإقطاعي.

الموقف السوقي لدى المسلمين

امتازت منطقتهم باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقا وغربا بقواعد آمنة وقلاع حصينة، فغدت القاهرة قاعدة رئيسية لتدريب الجند وإعداده وتموينه، وإليها ترسل الجرحى والأسرى، ومنها تطلب التعزيزات والتموينات لسد النقص. على حين غدت دمشق قاعدة أمامية لوضع الخطط وبذل الجهود السياسية. ولم يكن معروفا على وجه التحديد عدد الفرسان والرجالة التي يقدمها كل أمير إلى صلاح الدين للخدمة، ولا نوع التنظيمات العسكرية في الإقطاع الإسلامي الشرقي لعدم اهتمام المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة بهذه الناحية، وإن كان من المعروف أن شئون الجيش من تجنيد وتجهيز على عهد الأيوبيين أشرفت عليها إدارة اسمها ديوان الجيش وحينما ديوان الإقطاع.

لدى الصليبيين

لم يستطع الصليبيون من البداية حتى النهاية أن يحتلوا الأجزاء الإسلامية الداخلية، واقتصروا احتلالهم على الأجزاء التي تعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج، وعلى سلسلة القلاع الضخمة لضمان الحماية والدفاع ضد أى هجوم، فسوقيتهم تنحصر فى الحصون للحماية والدفاع، وفى البحر للتموين والتجهيز. فصارت الصحراء فى الجنوب هى الحد الفاصل لمملكة بيت المقدس الممتدة من البحر المتوسط إلى البحر الميت، وجعل الصليبيون على طول هذا الحد الجنوبى سلسلة من القلاع الحصينة المبتدئة من ذعيرة جنوبى بحيرة طبرية، ثم الكرك ومونتريال وساموا والكرمل وبيت جبريل وداروم، وخلف هذا الخط كانت قلاع بوفورت وشطنوف وفوار وصفد والقسطل وغيرها. وامتازت هذه الحدود الصليبية بأن قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية، من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الأبراج ذات الطابقين وكل مستلزمات الحماية من ذخيرة وتموين ومسائل دينية وصحية.

طرق الاقتراب

كان أمام الصليبيين طريقا اقتراب من أوربا إلى الشرق، أحدهما برا عن طريق القسطنطينية عبر جنوبى آسيا الصغرى من أرمينيا السفلى وسوريا، والآخر بحرا من موانى البحر الأبيض المتوسط إلى الساحل الشرقى الممتد من أنطاكية فى يافا. وكان الطريق الأول عبارة عن مسير طويل لمسافة تقارب ١٦٠٠ كيلو متر بالإضافة على المسافة التى قطعتها مختلف المفاوز وهى متجهة إلى منطقة الحشد

فى القسطنطينية. أما طريق الاقتراب البحرى فإنه يعادل نفس المسافة تقريبا من جنوبى إيطاليا وصقلية بالإضافة إلى ٩٦٦ كيلو مترا من جنوبى فرنسا و ٣.٢٢٢٠ كيلو مترا من إنكلترا.

أساليب القتال

كانت آسيا الصغرى، التى يخرقها طريق الاقتراب البرى، محتلة احتلالا عسكريا فقط من قبل الدولة السلجوقية. وظل معظم رعايا هذه البلاد مواليا للصليبيين. فالولايات الأرمنية جنوب شرقى آسيا الصغرى استطاعت، عن رغبة، أن تساعدكم مساعدة فعالة، غير أن الجنود الأوروبيين كانوا يواجهون كلما أوغلوا فى البلاد عدوا من نوع آخر يقاتل بأساليب مختلفة، وتعبئة لم يعهدوها أو يستعدوا لها. وقد تألفت جيوش المسلمين، عموما، من رماة سهام راكبين ومسلحين بأقواس خفيفة، ويجيدون استعمالها وهم على ظهور الخيل ولو كانوا منسحبين. وكانوا يمتطون خيولا قوية أصغر حجما وغير مثقلة بالأحمال، ويتحركون فى تشكيلات مفتوحة، وينضمون بسرعة لشن هجماتهم ثم يتفرقون مرة أخرى عند الضرورة. وهم فى ذلك تفوقوا على العدو المتقل كاهله بالدروع والأسلحة المركبة. وقد استطاعوا أن يظلوا بعيدين عن العدو دون التماس معه إلى أن تحين فرصتهم الملائمة للهجوم، وأن يصطنعوا أمامه الهرب لإيقاعه فى شرك كمين، أو ينسحبوا فعلا انسحابا بعيد المدى لإنهاك قواه وعزله عن قاعدته، فيطوقونه ويضربون جناحيه ومؤخرته ويعطلون سيره أو يجرونه على التوقف والمنازلة، كما كان باستطاعتهم الحفاظ على معدل عال فى الرماية. وعلى الرغم من أن الفرسان الأوروبيين يرتدون دروعا مقاومة للسهام إلا أن خيولهم كانت أكثر عرضة للخطر، فكثرت

خسائرها نظرا لأن هؤلاء الفرسان اعتمدوا اعتمادا رئيسيا على مناعة اندفاعهم الجماعي الراكب لكسب النصر، وكانت هذه الخسائر الجسيمة في خيولهم تحد من فاعليتهم، كما أن تشكيلات قوات المسلمين نادرا ما تقدم لهم أهدافا مناسبة لشن مثل هذا الهجوم، لأنهم تمكنوا بخفة حركتهم أن يتخلصوا من هذا الخطر في كثير من الأحيان انتظارا للحظة الحاسمة عندما يتشتت هؤلاء الفرسان ويصيبهم التعب، وتضعف روحهم المعنوية، فيطوقونهم ويجهزون عليهم بأسلحتهم الخفيفة. وكانت هذه التعبئة هي تعبير منطقي للمبدأ الذي يتطلب من القائد أن يتفوق على خصمه بكل وسيلة ممكنة قبل الاشتباك معه، فظلوا بعيدين ومحتفظين بحرية الاختيار في الاشتباك أو قطع التماس دون أن يورطوا أنفسهم في القتال القريب إلا بعد أن يهيئوا الفرصة المواتية بالنار والحركة.

إعلان الجهاد

نقض أرناط الهدنة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس باعتراضه القافلة المصرية قرب الكرك، فاعتبر صلاح الدين هذه الحادثة إعلانا بالعدوان وانتهاء للهدنة، وأرسل في طلب الجند من مصر وسوريا وحلب والجزيرة وديار بكر، استتفر الناس للجهاد وتهيأ الرأي لعام الإسلامى للحرب. خرج صلاح الدين من دمشق مسرعا إلى الجنوب في ١٣ / ٣ / ١١٨٧ (أول المحرم ٥٨٣) وترك ابنه الملك الأفضل عند رأس الماء قرب دمشق في انتظار العساكر القادمة من الشمال، وتقدم هو إلى موضع اسمه قصر السلام قرب بصرى والكرك ليمنع أرناط من اعتراض الحجاج، ولكنه لم يجرؤ على ذلك.

التقت القوات المصرية القادمة عن طريق أيلة بقيادة الملك العادل مع صلاح الدين في القريتين قرب الكرك، كما استعد الأسطول المصري بقيادة أمير البحر لؤلؤ للجهاد. أما الملك الأفضل فاحتشد عنده عناصر الجيش المختلفة وتقدم نحو عكا بعد أن وافق ريموند أمير طرابلس وصديق صلاح الدين في ذلك الوقت على مروره ببلاده في شكل مظاهرة حربية لا تستغرق أكثر من اثنتي عشرة ساعة. ومرت المظاهرة في سبعة آلاف فارس من المسلمين وتقابلت في طريقها عند صفورية بكوكبة من فرسان الملك غاي (Guy) مؤلفة من عنصرى الاسبتار والداوية (Hospitallers & Tempellers)، فكان النصر للمسلمين في تلك المفاجأة، ومات مقدم الاسبتار على حين أفلت زميله مقدم الداوية ووقع الباقيون في الأسر والقتل. وعلم صلاح الدين بهذا النصر وهو لا يزال على الكرك، فتحرك لساعته حتى وصل طبرية في منتصف آب عام ١١٨٧ وتقابل مع ابنة الملك الأفضل وتمركز عشتري. أما الملك العادل فعاد بعساكره إلى مصر بعد أن اتفق مع أخيه صلاح الدين على مشروع غزو فلسطين.

حطين الفاصلة

اجتمع صلاح الدين في عشتري بهيئة أركان حربه وعرض عليهم عزمه على غزو فلسطين والساحل من ناحية طبرية على أساس المبادهة بالهجوم، فوضعوا الخطط الكفيلة بذلك ثم استعرض صلاح عساكره النظامية وعددها اثنا عشر ألف فارس من أصحاب الإقطاعات والرواتب، على حين بلغت مشاته ثلاثة عشر ألفاً، عدا الاحتياطي والمتطوعة وهم كثيرون. وتحرك بهذا الجيش يوم الجمعة ٢٦ / ٦ / ١١٧٨ إلى الأقحوانة قرب طبرية. وعندما علم بتجمع

الصلبيين فى صفورية أشار عليه معظم قواده بعدم المبادهة بالهجوم، بل اتباع الطريق القديمة من إغارات متكررة ونهب وسبى فى بلاد العدو حتى تضعف مقاومته أولا ثم توجيه الضربة القاضية. وأشار فريق الأقلية بالدخول سريعا فى معركة فاصلة، لأن تنفيذ الخطة الأولى يزعزع ثقة الجند بصلاح الدين، ولا سيما جند البلاد الشرقية الذين جاءوا للجهاد والحرب الحامية السريعة لا الباردة البطيئة، ورجح صلاح الدين الخطة الثانية، ولذا تحرك من الأقحوانة وتمركز قرب بلدة الصبيرة غرب بحيرة طبرية مقابل الصليبيين المتمركزين عند صفورية، ثم دار صلاح الدين بجزء من جيشه وهاجم طبرية ليلا. وكان الصليبيون وقتذاك بصدد إحدى خطتين: إحداها دفاعية، يتجمع الصليبيون بموجبها فى صفورية حتى يزحف صلاح الدين نحوهم، إذا شاء، فتنتاب جيوشه متاعب الطريق وقلة الماء. أما الخطة الثانية فكانت هجومية، يتقدم الصليبيون بموجبها للاشتباك بقوات صلاح الدين. واختار الصليبيون الخطة الثانية وأهملوا الأولى، لأنهم لم يتقوا بريموند واضعها. فزحفوا باتجاه طبرية صباح الجمعة ٣ / ٧ / ١١٨٧ فى عشرين ألفا، وقيل خمسين ألفا، وكانت المقدمة بقيادة ريموند والقلب بقيادة الملك فارى، وتكونت المؤخرة من فرسان الداوية والاسبتارية. وعندما علم بذلك صلاح الدين فرح وقال جاءنا مانريد" لأن قصده من محاصرة طبرية هو اجتذاب الصليبيين نحوه، ليتمكن من قتالهم فى معركة مكشوفة على أرض خالية ذات مناخ حار، واشتغل صلاح الدين طول ذلك اليوم بإعداد العدة لملاقاة الصليبيين وأخبرته طلائعه بحركتهم نحو لوبية وأن مقدمتهم جاوزتها إلى وادى المعلقة على بعد ثلاثة أميال من البحيرة وعسكرت فى

منحدرات التل المعروف بقرون حطين، وعندها قبر النبي شعيب،
وتحتها قرية حطين مباشرة. أما القلب بقيادة الملك غاي فقد اضطر
أن يقف جنوب مارسكاليا، كما عجزت المؤخرة عن اللحاق بالمقدمة
والقلب لشدة المقاومة. وانتهى يوم الجمعة وبات الصليبيون ليلة السبت
حائرين لانعدام الأكل والماء والنوم. على حين علت روح المسلمين
المعنوية، وزادت ثقتهم بالنصر قبل الاشتباك الرئيسي، وباتوا ليلتهم
في تكبير وتهليل، وصلاح الدين يراقب نظامهم ويركز كل فرقة في
موضعها استعدادا للغد. وفي الصباح نشب القتال وحاول الصليبيون
التقدم للوصول إلى ماء البحيرة وينابيع المياه الموجودة بوادي حمام
حول قرية حطين، فمنعهم صلاح الدين وحاصرهم، وفرق فرسانهم
عن مشاتهم، وفصل مؤخرتهم عن بقية الجيش، وأمر الزرايين فزرقوا
هشيم الحشيش بالنار فتأجج تحت أقدام وحوافر الخيل. فاجتمع العطش
وحر الشمس مع حر النار والدخان وحر زئبق السهام على
الصليبيين. ولما رأى ريموند شدة الأمر جعل من ناحيته على القوات
التي بقيادة تقي الدين ومظفر الدين، فأفسح هذان القائدان الماهران له
الطريق وهو في زخم هجومه كي يخرج قواته من دائرة الحصار
وقد حسب ذلك نصرا، ثم ما لبثت دائرة الحصار بعد ذلك أن التأم
بمهارة مظفر الدين، ولم يجد ريموند سبيلا للخلاص بعد ذلك سوى
محاولة الإفلات والهرب إلى إمارته في طرابلس، ففנית جنوده
وضعفت صفوف الصليبيين لخروجه. كما لحق به رئيس الاستتارية،
وأمر بيت جبريل، وأمير صيدا، وصاحب أنطاكية. ومال المسلمون
نحو طائفة ثانية من الصليبيين فأبادوها جميعا. أما الملك غاي ومن
معه فأدرك أن لانجاة له من الموت إلا بمواصلة القتال، فحمل على

قوات الحصار حملة المستميت، ولكن المسلمين ظلوا محيطين به وسائر الصليبيين إحاطة السوار بالمعصم.

ثم حاول غاي محاولته الأخيرة حين صعد بجنوده إلى تل حطين، وأراد نصب خيامه للإقامة في مكان مرتفع حتى تأتيه النجدة، وفطن صلاح الدين إلى ذلك، فأمر جنوده بالصعود خلفهم، وأسروهم عن بكرة أبيهم ومعهم الملك غاي. فانتهت بذلك معركة حطين بهزيمة مادية ومعنوية للصليبيين، فمن الناحية المادية خاض صلاح الدين المعركة في جيش قوى ومهارة منقطعة النظير، فأحسن اختيار المكان والزمان عندما خيم بعسكره على طبرية حائلا بين العدو وبين الماء، وأعلن جهاده في شهر تموز، أشد شهور السنة حرارة وأقلها ماء في الصحاري والغدران، ثم إن طبيعة أرض المعركة أدت إلى عجز المشاة عن أداء واجبهم على الوجه الأكمل، وهو حماية فرسانهم من الرماة (وهذا ما يعرف الآن بالتعاون فيما بين الدبابات والمشاة) . أما من الناحية المعنوية فكانت حطين هزيمة ساحقة للصليبيين، لأنهم فقدوا جميع قاداتهم بين أسير وقتيل، ولأن جميع القلاع والمدن الصليبية أمست خلوا من الجنود ولا أمل لها ألبتة في تكون جيوش جديدة على وجه السرعة للوقوف في وجه صلاح الدين، وهذه فرصة لا تعوض.

استثمار الفوز

تحرك صلاح الدين بعد استراحة ثلاثة أيام نحو المدن الساحلية لأهميتها السوقية العظيمة لدى الصليبيين في حماية مملكة بيت المقدس وإيصال النجدة الأوروبية لها، ولدى المسلمين في تأمين خطوط

المواصلات بين الشام ومصر. ولذلك أوغر صلاح الدين إلى أخيه العادل بالزحف من مصر على الجنوب الغربى من فلسطين. أما هو فتقدم باتجاه عكا ليحكم طرفى الكماشة على بيت المقدس من الشمال والجنوب، وحاصر عكا ثم استولى عليها بدون قتال يوم الجمعة ١٠ / ٧ كما استولت قواته الأخرى على بعض المواقع الساحلية، وزحف أخوه العادل من مصر الشرقية إلى ساحل فلسطين الجنوبي فاستولى على حصن مجدل يابا قرب الرملة وفتح يافا عنوة، وتوجه مظفر الدين على رأس قواته إلى الناصر فاستولى عليها بعد مقاومة ثم استولى على صفورية، وتوجه فى نفس الوقت الأميران بدر الدين وغرس الدين وآخرون بقواتهم إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف، وسلمت بعدها حيفا وأرسون، وطلب الأمير حسام الدين من خاله صلاح الدين أن يقطعه نابلس ونواحيها إذا هو فتحها فاجاب طلبه وتقدم نحوها مارا ببسطة، وفيها مشهد زكريا عليه السلام فأعاده مسجدا، ثم حاصر نابلس حتى سلمت كما سلمت إليه بلدة حصن الفولة وديورية وجنين وزرعين والطور واللجون وبيسان وغيرها. ثم تحرك صلاح الدين إلى الشمال لتعزيز قوات ابن أخيه تقي الدين المحاصرة لحصن تبنين بين صور ودمشق فى جبال بنى عامر المطللة على بانياس فضربها بالمجانيق يوم ١٦ / ٧ حتى سأل أهلها الأمان. ثم استولى على صرخد يوم ٢٩ / ٧، وفتح صيد وتقدم بمحاذاة الساحل واستولى على بيروت كما عرض عليه أمير جبيل الذى أسر فى حطين أن يسلمه المدينة مقابل إطلاق سراحه. فأجاب إلى طلبه، وبذلك رفع صلاح الدين عن أهالى صيدا وبيروت وجبيل وجلهم مسلمون ذل المستعمر. وعندما حاصر صلاح الدين مدينة

صور وجدها منيعة ففضل التحول إلى الجبهة الرئيسية في الأرض المقدسة وتقدم إلى عسقلان يوم ٢٠/٨ مستوليا على الرملة وبينة وبيت لحم والخليل، والتقى بأخيه الملك العادل وولده على عسقلان يوم ٢٢/٨ فحاصرها وياشر النقبابون نقب أسوارها واشتد القتال على الباشورة، وبعد حصار دام أربعة عشر يوما سلمت المدينة مقابل إطلاق سراح الملك غاي أسير حطين بعد مضي سنة من هذا التاريخ، وأقام صلاح الدين بعسقلان حتى تسلم حصون الداوية بجنوب فلسطين وهي غزة وبيت جبريل، مقابل إطلاق سراح مقدم الداوية.

احتلال بيت المقدس

عندما تجمعت القوات المنتشرة في السحل أصبح صلاح الدين مستعدا تمام الاستعداد للزحف على بيت المقدس. وفي يوم الأحد ٢٢/٩ وصل صلاح الدين على رأس هذه القوات إلى ظاهر بيت المقدس، وأخذ يستكشف ويطوف بأسوارها خمسة أيام لوضع الخطة ثم خيم في الجهة الشمالية يوم ٢٧/٩ ونصب مجانيقه في هذه الناحية من المدينة، كما أخذ النقبابون في نقب السور المقابل لوادي جهنم (قدرون)، وأصبح باب القدس اصطفان (باب ستنا مريم) لا يقوى على الصمود. وذات يوم من أيام الحصار خرجت خيالة الصليبيين إلى ظاهر البلد لتحدى المسلمين وتمكنت من قتل الأمير عز الدين، فحمل عليهم المسلمون حملة رجل واحد وقذفوا بهم إلى داخل البلد. ثم تطور الاشتباك إلى قتال عام إذ رفض المسلمون الرجوع إلى مواقعهم بل أخذوا في ردم الخندق والتصقوا بالسور يجدون في نقبه على حين أخذ رماة المجانيق يوالون الرمي. ثم حشى بعض النقبابين ثغرة في السور بالأحطاب والأتبان وأشعلوا فيها النيران فامتلات بيت المقدس

دخاننا ونيراننا حتى طلب أهلها التسليم - بعد حصار دام أربعة عشر يوما - على أساس أن يعطى كل رجل من الصليبيين عن نفسه عشرة دنائير مصرية، وكل امرأة خمسة دنائير، وكل صغير وصغيرة دينارين وتم تسليم بيت المقدس ليلة الجمعة ٢ / ١٠ / ١١٨٧ وهى ليلة معراج عام ٥٨٣ هـ. وقد ضرب صلاح الدين أروع الأمثلة فى العفو عند المقدرة فسامح الفقراء عن الفدية وعامل الشيوخ والنساء والأطفال معاملة تتطوى على كثير من السخاء والشهامة، وسمح للبطريك بتجريد كنيسة القيامة وغيرها من جميع نفائسها وقدرت أثمانها بأضعاف ما استحق من فدية، ودلل على رجاحة عقله وبعد نظره عندما لم يوافق على إلحاح حاشيته بهدم كنيسة القيامة. فأخذ المسيحيون يعودون إلى القدس ويزاولون حياتهم العادية، واتجه بعضهم إلى طرابلس وصور فرفض أميراها إدخالهم حتى لا يتحملا مسئولية إطعامهم والدفاع عنهم ورغبت جماعة ثالثة فى الإبحار إلى أوربا فاعتذرت السفن التجارية الأوروبية عن حملهم بدون أجر لولا إرغام السلطات المصرية لتلك السفن على حملهم. وما أشد تأثر صلاح الدين عندما اجتمعت نسوة وأولاد الفرسان الصليبيين المأسورين والمجروحين يسألنه الرحمة والإنفاق عليهن فأجابهن إلى مطالبهن. وحسب الباحث أن يذكر هنا ما اقترفه الصليبيون من مجازر بشرية يوم دخولهم القدس فاتحين فى ١٥ / ٧ / ١٠٩٩ فقتلوا الأئمة والعلماء والعباد والزهاد ممن فارق الأوطان وجاور القدس الشريف، كما جمعوا اليهود فى معبد سليمان وأحرقوه عليهم. وأرسل غونفرى خطابا إلى البابا يصف له تلك المذابح الشنيعة بقوله أن "خيولنا كانت تخوض إلى الركب فى بحر من دماء الشرقيين".

استئناف الجهاد

وضحت الرحلة التالية تمام الوضوح عندما استحث الأمير سيف الدين نائب صيدا وببيروت صلاح الدين على متابعة الحرب الخاطفة وحصار صور. قلبى صلاح الدين وغادر القدس يوم الجمعة ٣ / ١٠ / ١١٨٧، ولكنه لم يستطع أن يستولى عليها برا أو بحرا فغادرها إلى عكا وحاول احتلال حصن كوكب، ثم عاد إلى قاعدته الأمامية في دمشق واستقبل استقبال الفاتحين ثم تحرك إلى مصب نهر العاصي لمقابلة عساكر الشرق وغزو بلاد الساحل الشمالية. ومن عجيب الصدف أن يفتح صلاح الدين ست قلاع ومدن في الرجالة بعضها إلى بعض. وليكن ذلك بهدوء وسكينة ودعاء بالنصر وإطراق وغض. وعندما تعود الفرسان من حملتها وتكفىء إلى مراكزها وحملتها، تعود الرجالة إلى أماكنها على ذلك الكيان، وترتص في مراكزها كارتصاص البنيان ويدل هذا القول دلالة واضحة على مدى التعاون بين صفوف القوات المسلحة في جيش صلاح وعلى عظمة التعبئة الصلاحية. أما الصليبيون فقد استطاعوا أن يواصلوا التقدم، رغم غارات المسلمين عليهم أثناء الحركة فاحتلوا أرسوف ودخلها ريتشارد وأمضى بها يوم ٨ / ٩ ، ثم غادرها في اليوم التالي إلى يافا، ولحقه هناك الأسطول بالتموين والآلات، فحاول احتلال القدس مرتين وباء بالفشل ثم جرى بينه وبين صلاح الدين صلح الرملة يوم ٢ / ٩ / ١١٩٢.

كان صلاح الدين في هذه الآونة مقيما في القدس، وأحس بوجوب الرجوع إلى قاعدته الرئيسية في القاهرة، غير أنه أرجأ ذلك إلى ما بعد طوافه بمدن فلسطين لكشف أحوال الرعية، فتوجه إلى نابلس يوم

١٤ / ١٠ وزار بيسان وطبريا وقلعة صفد ثم بيروت وأخيرا وصل إلى قاعدته الأمامية في دمشق يوم الأربعاء ٤ / ١١ حيث أصيب بالحمى الصفراوية وفاضت روحه الطاهرة قبل شروق الأربعاء ٤ / ٣ / ١١٩٣ ولما يبلغ من العمر خمس وخمسين سنة، بعد أن جعل معظم الشرق الأدنى جبهة متحدة ضد المستعمرين، وغير الجغرافية السياسية في فلسطين وحصر الصليبيين في شريط ساحلي ضيق بين يافا وأنطاكيا.

تصفية الصليبيين

جرت تصفية الصليبيين على مرحلتين، وكانت المرحلة الأولى على عهد خلفاء صلاح الدين، وأشهرهم العادل والكامل والصالح. واستطاعوا أن يهزموا الصليبيين في عدة مواقع، وجاءت في عصرهم الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة وباعت جميعها بالفشل. أما المرحلة الثانية فكانت في عهد المماليك ولا سيما الظاهر بيبرس وقلالون اللذان طردا الصليبيين من أنطاكيا وطرابلس، فلم يلق لهم سوى مدن سور وبيروت وعكا. ثم جاء الأشرف خليل بن قلالون واستولى على مدينة عكا عام ١٢٩١، مما أجبر الصليبيين على ترك المدينتين الأخريين.

فما أشبه اليوم الذي اغتصب فيه الصهاينة فلسطين، بالأمس حين غزانا الصليبيون عام ١٠٩٩ والشعوب الإسلامية مفككة الأوصال، والخلافة العباسية في بغداد غافلة عما حلت بها من أخطار، حتى هيا الله عبقريا استطاع بجهاده المقدس أن يلم الشمل ويرأب الصدع، فتهافت أمامه معاقل الدخلاء وانحسر ظل المستعمرين.

الفصل الثالث

حملة الملك المظفر قطز

"وإسلاماه" (صرخة) المعركة في عين جالوت

(من ملك الملوك شرقاً وغرباً الخان الأعظم - باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء.. يعلم "الملك المظفر" وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه وسلطانا على من حل به غضبه فلكم بجميع البلاد التي فتحناها معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطاء، فنحن لا نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب. فأى أرض تأويكم وأى طريق تتجيكم وأى بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ولامن مهابتنا مناص فخيولنا سوابق وسهامنا فوارق وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال فإنكم أكلتم الحرام وخنتم العهود والإيمان وفشا فيكم العقوق والعصيان فأبشروا بالمذلة والهوان (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون). فمن طلب حربنا ندم ومن طلب أماننا سلم فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا بالجواب قبل أن تضرم الحرب نارها).

هذا هو نص التهديد(١) الذي بعث به "هولاكو" قائد جيوش التتار

١- كما رواه المقرئى: السلوك، ج١، ق ٢٢، ص ٤٢٧ - ٤٢٩.

بصحبة أربعة سفراء إلى "قطز" سلطان مصر الملقب بالملك المظفر، وقد تم للتتار الاستيلاء على سورية بأكملها من بعد العراق، ثم اجتأحوا فلسطين ووصلت طليعتهم إلى مدينة غزة. فأمر قطز بإعدام هؤلاء الرسل وتعليقهم على أبواب القاهرة الأربعة وسارع إلى إعلان التعبئة العامة واتخذ كافة الإجراءات التي تكفل له إنجاح حملته التي عزم على تسييرها إلى الأرض المقدسة لتحريرها من الغاصب الدخيل، ثم قام بدعوة الأمراء والمتريدين وشرح لهم خطورة الموقف وبعض ما ارتكب التتار من أعمال وحشية يعجز القلم عن وصف بشاعتها في البلاد التي تخالل حكامها أمامهم وغدروا ببعضهم بعضا كما أوضح لهم ظلمة المصير إن ثبت التتار أقدامهم في فلسطين واتخذوها قاعدة لهم يقفزون منها على بقية البلاد العربيّة. ولقد بلغ به التأثير حدا جعل الدموع تنهمر من عينيه وهو حثهم على بذل أرواحهم في سبيل نصرة الدين وحماية الديار. فضج الأمراء من شدة التأثير وأجهشوا بالبكاء وأقسموا أن يصدقوا الجهاد المقدس.

وهو الذي أدرك بثاقب بصره أن حكام المدن الإسلامية والعربية الذين آثروا السلامة الاكتفاء بالدفاع دون الهجوم والمكوث وراء الأسوار قد أوقعوا أنفسهم في فخ لانجاة منه.

التقدم للتماس

تحركت القوات الرئيسية للحملة بقيادة "قطز" من قلعة الجبل يوم الإثنين الموافق ١٥ من شعبان ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) ومرت بالصالحية حيث سبقتها قوات خفيفة بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس لمتابعة العدو والاشتباك معه في غزة واختبار قوته ف وقعت معركة خاطفة بين هذه

السرية والنتار وأجبرتهم على الانسحاب فاحتل بيبرس غزة ثم استأنف عملية "التقدم للتماس" وأخذ يتتبع النتار إلى أن لحق بهم قرب قرية عين جالوت فى الجنوب الغربى من بيسان حيث يمر نهر الجالود وتقع بالقرب منها مستعمرة "عين حارود" الإسرائيلية الآن. جرت مناوشات مبدئية بين الطليعتين واندخر النتار قليلا قبل أن تتلاحق بهم قواتهم الرئيسية القادمة من دمشق بقيادة كيتبغا الذى عينه هولأكو محله قبل أن يعود مضطرا إلى بلاده.

أما القوات الرئيسية للحملة فإنها واصلت زحفها بمحاذاة الساحل مارة بيافا وقيصرية حتى عكا التى مازالت فى أيدى الفرنج فتعاقدوا مع السلطان على الحياد ثم غيرت الحملة محور تقدمها نحو الجنوب الشرقى لتلحق بقواتها الخفيفة.

نظام معركة الجانبين

أسس الجيش العربي بعد وصوله إلى جبل الكرمل قاعدة قوية له شرقى مرج ابن عامر مرتكزا بميمنته على مستنقعات وأطيان تعيق اندفاع التتار، وتشكل في وجههم مانعا طبيعيا لآبأس به. كما ارتكز بميسرته على رجال المشاة المسنودين بفرسان البادية وغيرهم بقيادة بيبرس؛ واشتملت قوات القلب على عناصر جيدة التدريب من الخيالة. وكان السلطان يقصد بذلك أن تكون المعركة ثابتة غير متحركة لمفاجأة التتار الذين تعودوا على ما يدعى الآن بالحرب المتحركة التي تعتمد على خفة الحركة والقتال الخاطف على جبهة واسعة والانتقاض المركز على مواطن الضعف المكتشفة. وقد مارسوا هذه العمليات سنين عدة، فأتقنوا أصولها بما لديهم من وسائل سريعة، واشتهروا بها ولا سيما أنهم لم يخسروا أية معركة في السابق فدانت لهم جميع البلاد الواقعة بين الصين وفلسطين.

تحشدت قوات التتار المقدرة بأربعمائة ألف فارس مرتفعات من اختيارها شمال شرق بيسان فاستفادت من طبيعة الأرض وركزت رماة السهام مقابل عناصر المشاة العربية ووضعت خلف الرماة القسم الأكبر من الخيالة الخفيفة الحركة على أهبة الاستعداد لاستثمار ما يلوح لها من فوز.

خطة الجيش العربي

درس قطز بعناية أساليب وخطط المغول الهجومية، وقد رأى أن المغول يعتمدون على القتال المتحرك مستفيدين من خفة حركة الخيالة

وهى عماد جيشهم وقتالهم، وقرر أن تتخذ المعركة شكل القتال الثابت، لذلك قرر أن يتخذ موضع الدفاع وأن تتميز المعركة بالقتال القريب والاشتباك بالسيوف والرماح، وبذلك يستطيع الاستفادة من عنصر المشاة الذى كان العنصر الرئيسى فى جيشه.

انتخب قطز موضعه الدفاعى فى المنطقة المحصورة بين نهري الجالوت وجليو مستفيدا من طبيعة الأرض فى هذه المنطقة التى كانت تتميز بما يلى:

١- الأرض منبسطة وواسعة ذات قابلية على استيعاب قطعات كبيرة.

٢- وجود مستنقعات بيسان فى جناحه الأيمن تحدد حركة الخيالة المغولية، وبذلك تضطر إلى الهجوم من الجبهة حيث لا تستطيع الالتفاف من هذا الجناح.

٣- كثرة الموانع والأنهار تحدد عمل الخيالة التى يتفوق بها المغول فتقل أهميتها.

٤- فى حالة اضطراره إلى الانسحاب يستفيد من نهر جليو لتأخير مطاردة المغول له.

احتل قطز الموضع الدفاعى كما يلى:

القسم الأكبر بقيادته فى المركز (القلب)، ويتألف من المشاة وقليل من الخيالة.

الميمنة المؤلفة من المشاة وقليل من الخيالة.

الميسرة المؤلفة من المشاة وقليل من الخيالة.

الاحتياط وهو فرق الخيالة الرئيسية بقيادة الأمير بيبرس التي وضعها خلف القلب مباشرة، واجبها مطاردة المغول بعد دحرهم.

وكانت الخطة تقضى بصمود المشاة بوجه خيالة المغول وإجبارهم على القتال القريب المتلاحم فتشل قابلية حركتهم، وتكسر شدة هجماتهم فتقوم خيالة المصريين بالانقضاض عليهم ومطاردتهم.

وفى حالة فشل هذه الخطة يطبق المصريون خطة المغول نفسها، فيتظاهرون بالانسحاب من المركز فتحدث ثغرة يندفع منها المغول، ثم يطبقون عليهم من ثلاث جهات بعد تورطهم بالتغلغل بعيدا ويتم القضاء عليهم.

خطة الجيش المغولى

تعتمد خطة المغول التي برعوا فيها فى جميع حروبهم على تجنب الاشتباك مع الخصم فى البداية، فيقومون بهجمات بسيطة فى محلات مختلفة حتى يكتشفوا نقاط للضعف فى صفوف الخصم ليحشدوا قواهم الرئيسية أمام نقطة الضعف ويشنوا هجومهم الكثيف عليها.

يبدأ الهجوم بقصف كثيف من قبل حاملى السهام فيختل توازن الخصم، ثم يبدأ الهجوم.

وفى معركة عين جالوت قرر القائد المغولى بعد دراسته الموقف، وقيامه بالهجمات المحدودة لكشف نقاط الضعف، القيام بهجوم جبهوى وتحطيم مركز تجمع المسلمين، وقسمها إلى قسمين والنفاز من الوسط والالتفاف على مؤخرة القسمين المنشطرين.

ولقد وضع خطة بديلة تقضى بالتظاهر بالانسحاب عند فشل هجوم

المركز لاستدراج الجيش المصرى وإخراجه من مواضعه الرئيسية،
وعندئذ تقوم فرق الخيالة السريعة بالانقضاض عليه وتحطيمه.

مراحل المعركة

فى صباح يوم الجمعة الموافق رمضان عام ٦٥٨ هـ (٦/٩/١٢٦٠م) بدأت سهام التتار تنقذف بغزارة بين صفوف المشاة العربية، وعندما اختل توازنها اندفعت فجأة خيول التتار واصطدمت معها بعنف وفتحت لها ثغرة، وهذا ما قدره السلطان مسبقا حيث أوعز لمشاته أن تتظاهر بالفرار، وهنا انخدع التتار وظنوا أن مرحلة الاختراق قد تمت لهم على خير وجه فاندفعوا يريدون المباشرة بالمرحلة الثانية، وتوغلوا بين عناصر الجيش ~~العربى~~ فبرز السلطان بقوات القلب صائحا بصرخة المعركة التى اشتهر بها "والإسلاماه" فاندفعت معه قوات جناحيه قدماً، ودحروا التتار إلى التلال القريبة من بيسان فانفلتت من يد التتار زمام المبادأة، ولم تتم لهم مرحلة التوغل، بل تحققت للجيش العربى.

فأطبق بيبرس عليهم بقواته وشدد الخناق، كما توجه الأمير جمال الدين قوس الشمس إلى كتيغاً واستطاع أن يقتله ويرفع رأسه فوق رمحه عالياً، فدب الذعر فى جموع التتار وولت بعض قبائلها الأدبار. ولكنهم سرعان ما أعادوا تنظيمهم وجددوا الاشتباك. وعندما حمى وطيس المعركة من جديد برز السلطان يجاهد بنفسه ويجالد الأعداء مرددا صرخة المعركة - والإسلاماه! والإسلاماه! فصدقت قواته الجهاد وفرقوا شمل التتار، ثم تحول بيبرس إلى مرحلة المطاردة. وأوعز لقواته بالتقدم لاستثمار الفوز على الفور فلحقوا بفلول التتار وأعادوا

التماس معهم واستمروا فى مطاربتهم حتى أفنوا منهم خَلَقًا كثيرًا، ثم غادر الملك المظفر قطز فلسطين بعد أن مرغ وجهه بتربتها المقدسة شكرًا لله، وتوجه إلى سوريا حيث قال أحد المؤرخين: « وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم، فإن القلوب قد ينست من النصره على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام لأنهم ما قصدوا إقليمًا إلا فتحوه ولا عسكرا إلا هزموه ».

الدروس المستفادة

التوعية ورفع المعنويات

أدرك الجميع الخطر الذي يتهددهم وتبينوا قواهم الكامنة إن توحدت كلمتهم. وكانت العقيدة الإسلامية الحقّة هي أساس معنوياتهم العالية. فهم يحاربون عدوا يدعى اعتناق دينهم ولكنه في الواقع قضى على حاضرة الخلافة وأباد التراث الإسلامي في بغداد، ثم اجتاح الأرض المقدسة واتخذ منها قاعدة للقفز على مصر لمواصلة السلب والسبي وإزهاق الأرواح وإخضاع البلاد.

التعرض وعدم الاستكانة في دفاع مستمر

لا ينال القائد نصرا بدون عمل إيجابي، ولا شك في أن الهجوم خير وسيلة للدفاع. وقد حقق السلطان هذا المبدأ بأن أرسل قسما من جيشه بقيادة بيبرس للتماس بالعدو والاشتباك معه في قلب قاعدته التي استولى عليها في الأرض المقدسة. وقد أدى بيبرس هذه المهمة خير أداء. واستطاع أن يجتاح القسم الأكبر من فلسطين ويضم إليه المجاهدين.

الشجاعة والمثابرة

تولى السلطان القيادة العامة للمعركة عن كثب، وأبدى من ضروب الشجاعة ما جعل سائر القادة والجنود يقتدون به، حتى لقد سقطت فرسه تحته وهو يجاهد في العدو ويجالده. وكلما رأى فتورا صاح بصرخة معركة الشهيرة "وإسلاماه!" فشدد العزائم. ومن واجب كل قائد أن يكون قدوة لمرءوسيه ونحن نراهم في الحروب الحديثة يمتطون دبابات القيادة الخاصة بهم على مختلف مستوياتهم ويوجهون

المعركة دقيقة إثر دقيقة. إن القيادة الرديئة تقضى على الشجاعة الفطرية لدى الجندي، الذي يعرض نفسه للموت، فيغفل عن واجبه تجاه وطنه وقومه وأهله. وكم من معركة لاحت فيها الهزيمة ثم تحولت إلى نصر مبين بفضل الشجاعة والمثابرة التي يبديها القائد ويأخذها عنه الجنود.

مطاردة فلول العدو وإيادته عن آخره

على القائد المنتصر إذا أراد المحافظة على منجزاته التي كلفته غالبا أن يبادر فورا إلى مصاردة فلول العدو دون هوادة فلا يترك له أية فرصة للتجمع وإعادة التنظيم واستئناف القتال المنظم، وهذا ما فعله بيبرس، فتحقق للجيش العربي نصر حاسم ولحقت بجيوش التتار الهزيمة لأول مرة.

الموقف العام في البلاد العربية والإسلامية قبل الحملة

عندما احتل المغول الصين وبدعوا بالاستعداد لغزو العالم الإسلامي كانت الخلافة العباسية في بغداد تحتضر، ولم يملك الخليفة العباسي من الإمبراطورية العظمى التي أسسها المسلمون الأوائل سوى بغداد وحدها، أما بقية البلاد، فقسم منها قد انسلخ عن الخلافة والقسم الآخر تقسم إلى دويلات يحكمها المماليك وملوك الطوائف. وكانت هذه الدويلات نفسها ينازع بعضها بعضا.

ففي الشرق كانت الدولة الخوارزمية التي تضم إيران وأفغانستان وتركستان، وكانت هذه الدولة في نزاع مستمر مع جيرانها المسلمين، فأضعفتهم وضعفت هي الأخرى من كثرة الحروب والاضطرابات.

وفي بغداد كان الخليفة العباسي الناصر لدين الله ومن بعده

المستعصم بالله أضعف من أن يعيدوا للخلافة هيبتها ويوحدا الأمة التي باتت تنطق بالعربية من المحيط الأطلسي إلى حدود الصين.

وكانت سورية تحكمها بقايا أسرة صلاح الدين الأيوبي بينما الفرع الآخر من الأسرة يحتضر في مصر نتيجة سيطرة المماليك على الحكم فيها.

وأما شمال أفريقيا والأندلس فقد تفتتت هي الأخرى إلى دويلات وإمارات ضعيفة، وكذلك الحال في جنوب الجزيرة العربية.

الحملة غيرت وجه التاريخ

من خلال هذا العرض الموجز لمعركة عين جالوت يمكن القول إن هذا النصر العظيم الذي حققه المسلمون في عهد المماليك في عين جالوت، وما أعقبه من طرد المغول نهائيا من بلاد الشام، يعد بحق من الأحداث الحاسمة في تاريخ مصر والشام وفي تاريخ الأمم الإسلامية وفي تاريخ العالم بأسره، إذ إن ذلك الانتصار لم ينقذ العالم الإسلامي وحده، بل أنقذ العالم الأوروبي والمدنية الأوروبية من شر لم يكن لأحد من ملوك أوروبا وقتئذ قبل بدفعه، فلو تم للمغول اكتساح الأراضي المصرية، والنفوذ إلى شمال أفريقيا حيث الصحراء الكبرى التي هي الطريق التقليدي المعروف لدى الغزاة والفاطحين الذين قاموا بغزو أوروبا من الجنوب في العصور المختلفة، لتمكنوا من سلوكه إلى أوروبا عبر جزيرة صقلية وجبل طارق.

كما يمكن القول أيضا إن هذه المعركة تفوق في أهميتها المعارك الحربية الحاسمة في العصور الحديثة، لأنها لم تكن حربا بين شعوب راقية متحضرة تحكمها القوانين والقواعد والأعراف، بل كان أحد

طرفيها وهم المغول عبارة عن شعب بدائي بربرى متوحش سفاك للدماء مخرب لكل معالم الحضارة، ومن هذا المنطلق نستطيع ان نؤكد بأن موقعة عين جالوت فى تركت فى تاريخ البشرية أثرا أشد وقعا وأقسى تأثيرا مما تركته معركة المارن فى الحرب العالمية الأولى والعلمين فى الحرب العالمية الثانية.

وإذا ما قصر ذلك على العالم الإسلامى فإن انتصار المماليك فى هذه المعركة كان بمثابة السد المنيع الذى حال دون تقدم المغول على بقية العالم الإسلامى، وقضى المماليك بذلك على خرافة الجيش المغولى الذى لا يقهر التى كانت تردد فى الأوساط السياسية والعسكرية آنذاك. كما أن هذا الانتصار العظيم بعث روحا جديدة فى المسلمين لاسيما مسلمى فارس الذين ارتفعت روحهم المعنوية، وأخذوا يصمدون أمام مناورات المسيحيين وينافسونهم تبوء مركز الصدارة فى دولة المغول فى فارس وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الدين الإسلامى حتى كللت مساعيهم بنجاح باهر أثمر اعتناق المغول فى غرب آسيا للدين الإسلامى.

وثمة أهمية أخرى هى أن انتصار المماليك فى هذه المعركة قضى على المعارضة الأيوبية لهم فى بلاد الشام، وحصل المماليك بموجبه على ما كان ينقصهم من نصر سياسى لابد منه لتثبيت أركان دولتهم، ولم يعد المسلمون يذكرون عنهم سوى شىء واحد هو أنهم أنقذوا العالم الإسلامى من خطر الغزو المغولى المدمر، وأن بقاءهم فى الحكم بات ضرورة لابد منها، وذلك للمحافظة على كيان المسلمين. وقد توج المماليك تلك الثقة بإحياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة

٦٥٩ هـ لتكتسب بذلك دولتهم صفة الشرعية الكاملة.

كما أن انتصار المماليك في عين جالوت كان له دور كبير في إضعاف بقايا الإمارات الصليبية على ساحل بلاد الشام ، فالذى لا شك فيه أن الصليبيين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة بعد ذلك النصر العظيم الذى حققه المسلمون ضد المغول في هذه المعركة.

ومن الناحية الحضارية، فقد جنبت مصر بعد هذا النصر ويلات الغزو المغولى المدمر واحتفظت بما لها من مكانة حضارية ومدنية، ولم تتعرض لما تعرضت له بغداد ودمشق وغيرهما من مدن إيران والعراق والشام من الخراب والدمار الذى عطل ما كانت تزخر به المدن الإسلامية من العلوم والآداب والفنون والمعالم الحضارية، وبقيت القاهرة مكانا هادئا آمنا يدعى إليه العلماء والأدباء وغيرهم، واكتسبت بذلك عاصمة الدولة المملوكية مكانة ممتازة من الناحية الأدبية والعالمية إلى جانب مكانتها السياسية التى برهنت عما اكتسبه للمماليك المسلمون من هيبة ومقدرة فى شئون السياسة والحرب، اتضحت فى علاقاتهم الخارجية الدولية الواسعة الانتشار، وفى إصلاحاتهم وإدارتهم الداخلية الحازمة.

وختاما يمكن القول إنه بفضل انتصار المسلمين فى معركة عين جالوت، أصبحت سلطنة المماليك المسلمين فى بلاد الشام ومصر أقوى دولة فى الشرق الأدنى لمدة تزيد على قرنين من الزمان بعد أن كانت مهددة بالزوال وهى فى مهدها. إذ إن هذا الانتصار بدد أحلام المغول فى السيطرة على بلاد الشام ومصر، وتحقيق حلمهم بتكوين إمبراطورية مغولية عالمية، كما عجل فى الوقت نفسه بزوال ما تبقى

من الإمارات الصليبية في المشرق الإسلامي، إذ تمكن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس من القضاء على إمارة أنطاكية الصليبية سنة ٦٦٦هـ، وتولى السلطان المنصور سيف قلاوون إمارة طرابلس في سنة ٦٨٨هـ وتلث ابنه الأشرف خليل بالاستيلاء على مدينة عكا آخر المعقل الصليبية في بلاد الشام وذلك في سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م.

الفصل الرابع

حملة نابليون

غزا نابليون بونابرت الشواطئ المصرية عام ١٧٩٨، وتمكن من احتلال الوجه البحرى فى لفترة الواقعة بين شهرى تموز وأيلول، ثم وجه كل جهوده نحو تحويل مصر إلى قاعدة قوية يستطيع منها تجهيز جيشه بالإمدادات والمواد اللازمة لسد النقص. غير أنه قبل إنجاز هذه المهمة، أدرك أن هدفه السياسى إجبار تركيا على التحالف معه لم يتحقق. فقد كان يأمل أن يؤدى استيلاؤه على مصر، والتظاهر بأنه يساعد تركيا على استعادة نفوذها فى هذه المنطقة، إلى ارتمانها فى المعسكر الفرنسى.

كان السلطان ضعيفا ومتريدا بين قبول فروض التحالف الفرنسى أو البريطانى فأرغم على قبول مساعدة بريطانية روسية ضد الغزاة الفرنسيين الذين احتلوا جزءا من إمبراطوريته العثمانية وقد أعلن الحرب المقدسة (الجهاد) وأمر بحشد جيشين على وجه السرعة أحدهما فى رودس والآخر فى بلاد الأناضول وسوريا.

فكا الكماشة

تقرر أن يهبط الجيشان، بعد حشدهما مباشرة إلى أرض مصر فى حركة فكى كماشة لطردهم الفرنسيين إلى البحر، وذلك بأن يرسو جيش رودس المنقول بحرا على مراكب بريطانية قرب الإسكندرية، وأن يهاجم جيش سوريا الأراضى المصرية برا عن طريق فلسطين وسيناء. وقد أوعز إلى أحمد الجزار باشا عكا أن يدعم تحركات الجيشين حتى التقائهما فى الدلتا، وذلك بتجميع ما يتيسر لديه من

القوات التركية، وتعزيزهم بالمجندين العرب، ثم سوقهم باتجاه مصر والتحرش بجيش نابليون.

وعندما علم نابليون بالتحركات التركية المبيتة صمم، كما هي عادته، على أن يهاجم أعداءه ويقهرهم في عقر دارهم وهم مازالوا متفرقين. واتخذ قرارا بغزو فلسطين للسعي وراء جيوش بلاد الشام ومنازلتها في حملة قصيرة وسريعة ثم العودة إلى مصر في الوقت المناسب، لمواجهة الغزو المنتظر من رودس وقد عزم على احتلال فلسطين إلى جانب مصر.

ولماذا فلسطين؟ ألم تكن مصر عبئا ثقيلا؟ ولكنه أدرك وضعيته المكشوفة وشعر أن استيلاءه على فلسطين يمكنه من:

- إنشاء حاجز في وجه الأخطار المقبلة نحو قاعدته المصرية.
- حرمان الأسطول البريطاني من استخدام الموانئ الفلسطينية لا سيما بعد أن تمكن من تدمير الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير وسيطر على البحر.
- استمالة العناصر المناوئة في بلاد الشام.
- تهديد بلاد الأناضول وطرق الخليج العربي تهديدا مباشرا لتحويل أنظار الإنكليز والأتراك عن مصر.

السرعة

لاشك أن السرعة هي العامل الأهم في تنفيذ خطة نابليون، إذ كان عليه أن يحتل الساحل الفلسطيني ولا سيما مدينة عكا قبل وصول التعزيزات التركية إلى الحاميات المحلية. فتحتم عليه أن يقوم بمهمة

منازلة جيش سوريا قبل أن يتمكن هذا الجيش من ذلك، وقبل أن يشن جيش رودس هجومه.

قسم نابليون مسرح الحرب المقبلة إلى قسمين: صحراء سيناء وساحل فلسطين. وتتبا بوجود عدوين رئيسيين هما الجوع والعطش، إلى جانب تحرش البدو والمحليين لأجنحته أثناء قطعه مسافة مائتي كيلومتر عبر صحراء سيناء القاحلة. وافترض أنه سيواجه أولى المقاومات العنيفة في منطقة جنوبي فلسطين، ثم تتلاشى هذه المقاومة تدريجيا كلما تحرك جيشه باتجاه عكا. وافترض أيضا أنه سسيأخذ عكا بعد حصار تام لن تبلغ صعوبته حدا مستحيلا.

أسس نابليون سلاح الهجاة يوم ٩ / ١ / ١٧٩٩ لحماية أجنحته من تدخل الأهالي وابتكر أسلوبا جديدا في رماية البنادق لمواجهة الغزوات المفاجئة التي يشنها المغيرون من سكان البادية. وقد أتاح هذا الأسلوب لصفين من الصفوف الثلاثة المعتادة في نظام معركة السرية بأن يطلقا النار دفعة واحدة، ثم يكرران هذه الرماية المركزة فور إطلاق النار من قبل الصف الثالث.

ولكن معظم الجهود المبذولة في الإعداد للخطة كانت منحصرة في التغلب على الجوع والعطش. فقد جعلت كل فرقة اشتركت بالحملة (أربع مشاة متوسط جنود الواحدة ٢٥٠٠ جندي، وفرقة خامسة من الفرسان) ذاتية الأسناد من الناحية الإدارية، وزودت كل وحدة فرعية ببغالها الخاصة لحمل المؤن والماء والأدوات اللازمة للتنقيب عن المياه ورفعها. وألحق بالوحدة الإدارية التابعة لكل فرقة مستشفى ميدان محمول على الجمال، وصممت لها النقلات بناء على اقتراح نابليون نفسه.

وأخيرا عمل نابليون على إراحة قوات التجريدة من حمل المعدات الثقيلة التي رأى عدم لزومها أثناء اجتياز الصحراء، فأزاح عن كاهل التشكيلات الزاحفة مسئولية تسيير قافلة معدات الحصار الثقيلة، وقد شحن هذه المعدات في مجموعتين من السفن الفرنسية لنقلها بحرا إلى عكا حيث كان استخدامها متوقعا.

الغزو

أكمل الفرنسيون الاستعدادات في خمسة أسابيع، وحدد نابليون ميعاد مغادرة قواته من موقع الصالحية يوم ٥ / ٢ / ١٧٩٩ ، وقدر نابليون لطلانعة أن تصل رفح على حدود فلسطين قبل ١٤ / ٢ ، على افتراض أن قطع مسافة ٢٠٠ كم عبر الصحراء يستغرق سبعة أيام.

المخطط

عبر حرس المقدمة إلى صحراء سيناء وعلى رأسه الفريق رينير يوم ٦ / ٢ ثم تبعه بعد مضي أربع ساعات وحدات من فرقة الفريق كليبر، ولم تواجه هذه القوات أية مقاومة تذكر في اليومين الأولين، فأسرع رينير في اندفاعه وفات كليبر بمراحل ووصل مع غروب يوم ٨ / ٢ إلى ضواحي العريش، وفي صبيحة اليوم التالي واجهت قواته مقاومة عنيفة عندما حاولت الاستيلاء على البلدة، وقد أبدت هذه المقاومة قوة تركية تمركزت في البلدة نفسها وفي حصن مشرف مربع الشكل ذي أبراج بارزة ظهر فجأة أمام الفرنسيين وكانوا لا يعرفون عنه شيئا ولم يستخبروا عنه أو يحسبوا له أي حساب، وكان رينير مصيبا عندما ارتأى أن أحسن فرص النجاح تكمن في السرعة.

فأمر قواته باقتحام مواقع أعدائه، ولكن نجاحه لم يكن حاسما وظل

الحصن فى أيدى الأتراك، وتمكنت حامية البلدة من الانسحاب إلى داخل الحصن، وقد دفع رينير ثمنا غاليا فى العريش وبلغ عدد قتلاه ٢٠٠ وجرحاه ٣٠٠.

وفى الواقع ذهبت كل هذه الجهود سدى، فلم يكن بالإمكان التأثير على جدران ذلك الحصن بالمدافع الخفيفة المساندة لحرس المقدمة، مما أجبر رينير على ضرب حصار عقيم دام سبعة أيام لمحاولة القيام بعمليات النقب أو التلغيم.

وفى يوم ١٤ / ٢ أصبح موقف رينير خطيرا عندما سمع عن اقتراب ٢٥٠٠ فارس تركى كان قصدهم على الأغلب فك الحصار عن الحصن، ولحسن حظه وصلت القوة الرئيسية لفرقة كليبر فى نفس اليوم وقد شنت القوى الفرنسية المختلطة هجوما مفاجئا فى الليلة التالية وصعقت قوة الإنقاذ التركية وطارت فولها إلى الشمال والشرق، ولكن لم يتحقق إلا القليل فى سبيل قهر الحصن لأن مدفعية فرقة كليبر كانت خفيفة هى الأخرى فظلت جدران الحصن على حالها.

خبيبة الأمل

وصل نابليون إلى العريش يوم ١٧ / ٢ وكان قلقا لفشل رينير فى الوصول إلى حدود فلسطين قبل ذلك التاريخ. فبذلت جهود كادت تخرج عن طاقة البشر، وجلبت قطع المدفعية المتوسطة فى غضون ٤٨ ساعة من الخلف وركزت فى مواقع الرماية مقابل الحصن، ولكن أصيب الفرنسيون بخبيبة أمل كبيرة عندما اتضح لهم أن عيار ١٢ رطلا لا يخترق هو الآخر التحصينات التركية، ولم تكن هناك وسيلة

للتغلب على الحصن بسرعة نظرا لوجود معدات الحصار الثقيلة فوق السفن المتجهة نحو عكا كما أنه لم يكن بالمستطاع ترك الحصن على حاله لأنه يعترض خط المواصلات الوحيد مع القواعد الفرنسية في مصر، وفي هذه اللحظة الحرجة ضم أمر المدفعية الفريق دومارتين بطاريات هاون الفرق إلى مدافع الهاوزر القليلة التي بإمرته وحشدها لتركيز سد نارى قوى على أمل إصابة القسم الأكبر من حامية الحصن البالغ عددها ١٠٠٠ جندي، والتي عسكرت في الساحة المكشوفة، فقد أدرك عدم استطاعتها أن تحشر نفسها في الملاجئ الصغيرة المهيأة ضمن الجدران، وقد تحققت فكرة دومارتين، وأخيرا طلبت الحامية التركية التسليم، وقد دام الحصار مدة أحد عشر يوما، ولم تصل القوى الفرنسية رفح إلا بتاريخ ٢٣ / ٢.٢.

مجزرة يافا

غزا نابليون فلسطين فى حملته البرية المشهورة مرتكزا على قاعدته فى مصر، وعندما أشرف بقواته الرئيسية على يافا يوم ٧ / ٣ / ١٧٩٩ وقف بجيشه على بعد ثلاثة أميال من أسوار المدينة لوضع الخطط، فقسم الجيش إلى ثلاث فرق، قامت اثنتان بعملية الحصار وتمركزت الثالثة إلى الشمال على طريق عكا، وكان جنود حامية يافا ثمانية آلاف جندي من المرتزقة العرب والأتراك وغيرهم داخل سور ضخم تعلوه الأبراج الحصينة، ففضل الفرنسيون أن يرسلوا إلى حاكم المدينة خطابا ينصحونه بالتسليم ويمنونه بالأمان غير أنه قبض على حامله وقتله فأغاظ ذلك نابليون وأصدر أوامره بإطلاق نيران المدافع، وكلف الجنرال كليبر بمهمة الاقتحام، وأوعز إلى قائد آخر بالإشراف على عملية فتح ثغرة فى السور، وفى هذه الأونة انتشر الرماة

الفرنسيون فى "البيارات" وقد استطاع جند من المغاربة العرب أن يتسللوا نحو هؤلاء الرماة وينقضوا عليهم وهم خلف مدافعهم بجوار المقبرة فأبادوا كثيرا منهم دون أن يصابوا هم بأية خسائر، وبدأت الحامية تصب نيران مدافعها، واستمر القتال إلى أن حل الظلام.

وفى الساعة الرابعة من صبيحة اليوم التالى تمكنت المدفعية الفرنسية من فتح ثغرة فى السور تجاه "حارة النصارى" واقتحم الغزاة المدينة ليلة عيد رمضان سنة ١٢١٣ هجرية، واستمروا فى قتل الجنود المستسلمين والأهالى المسالمين واعتدوا على النساء ونهبوا ما استطاعوا طيلة هذه الليلة، وظل نابليون مكانه متوسدا أحد المدافع، ولم يأمر جنوده بالكف عن هذه الاعمال البربرية إلا فى الصباح فجاءوا إليه بأربعة آلاف أسير من جنود الحامية، وبدأت عليه الحيرة عندما وجد هذا العدد الكبير، لأنه لم يرد أن يشاركوه أرزاقه التى نهب معظمها.

وبعد مرور ثلاثة أيام من التفكير أمر من يرميهم بالرصاص أو يطعنهم بالحرايب فى حالة عدم توافر الذخيرة، ففشت الأوبئة وسرت العدوى إلى الفرنسيين أنفسهم واضطروا إلى قتل مصابيهم حماية للآخرين، وقد ألحقت هذه الفعلة العار والشنار بسمعة نابليون.

جبل نابلس يثور على الفرنسيين

علم الجنرال كليبر وهو معسكر بفرقته على نهر العوجا أثناء وضع الخطط لفتح يافا؛ أن جموع الأهالى أخذت تحتشد فى نابلس، وارتأى أن يرسل إليهم مناشير باللغة العربية لحملهم على الانضواء تحت الراية الفرنسية بدلا من العثمانية، فكلف ضابطا مع مفرزة بهذه

المهمة، وعندما أصبح فى وادى عزون الضيق انهمر عليه الرصاص من حيث لا يحتسب واضطر إلى التقهقر وقد أصابه جرح بليغ عندما ارتطم بصندوق حمله على فرسه ثم أرسل كليبر كتبتين من فرقته إحداهما إلى قرية صرتا شرقى محطة رأس العين والأخرى إلى قرية مسكه قرب طيرة بنى صعب، ولكنهما لم تستطيعا سوى رد النجادات التى أرسلها الجبل إلى السهل.

وبعد أن تم لنابليون فتح يافا أرسل إلى قوات كليبر قوة أخرى، واتجهت جميعها صباح يوم ٢٤ / ٣ إلى قاقون شمال غرب طولكرم ونازلت هناك جنودا غير نظاميين ودحرتهم حتى قرية زيتا. وفى ظهر ذلك اليوم نشبت معركة عنيفة بين الطرفين وتظاهر النابلسيون بالهرب أمام العدو فانخدع وطاردهم حتى توغل فى منطقة وعرة، وهناك كمنوا له وأوقعوا به خسائر فادحة ثم اختفوا فى أعالي الجبال.

وعندما توجه نابليون إلى جبل الكرمل وجعل مقر القيادة على قمته وأشرف على السهول المترامية الأطراف واستسلمت له حيفا صلحا وانتصر على القوات العثمانية فى معركة جبل طابور قرب الناصرة، واستولى على صفد وطبرية تجمع ثمانية آلاف من النابلسيين ومعهم نجادات من جبل الخليل والقدس، واقتربوا منه فنزلوه فى المرج ثم اعتصموا بالجبال مرة أخرى.

وقد أرسل نابليون كتيبة إلى جنين لحرقها ونهبها مع بعض القرى بحجة عدم الاستسلام ثم سحبها إلى الناصرة دون أن يتحقق له إخضاع هذا الجبل الأشم، مما عرض جناحه الأيمن للخطر الدائم أثناء فرض حصاره الطويل على عكا، فضعفت روح جنوده المعنوية

وذهبت قواهم واضطر في النهاية إلى رفع الحصار والجلء عن فلسطين بأكملها يوم ٢٠ / ٥ / يجر وراءه أذيال الخيبة.

تدخل البريطانيون

علم قائد العمارة البريطانية في شرقي البحر الأبيض الأميرال سدنى سميث أن باشا عكا لا يستطيع مقاومة الفرنسيين مدة طويلة فوصل في الوقت المناسب يوم ١٥ / ٣ على ظهر السفينة "النصر" وأنزل العقيد فيليبو ليشرف على الاستعدادات الدفاعية، ومما يجدر ذكره أن فيليبو هذا من أصل فرنسي وكان أحد زملاء نابليون في الكلية الحربية بباريس.

ثم تجند في البحرية البريطانية، وقد تضافرت الجهود لجعل مدينة عكا في حالة دفاعية جيدة تكفى على الأقل لصد أول اقتحام فرنسي عام، وأصبح بداخلها ٢٥٠ مدفعا من عيارات مختلفة وألف ومائتا قنبلة زنة ٤٨ أوقية بالإضافة إلى أربعة آلاف قذيفة مختلفة كانوا يسمونها قلة.

وكان الجند خليطا من الأتراك والمغاربة والأرناؤط والأهالي العرب، وشكلت هذه القوات فرقتين، إحداها فرقة المماليك بقيادة إبراهيم باشا، زعيم المماليك الملتجئ إلى أحمد الجزار، والأخرى فرقة المرتزقة والعرب، بقيادة عبدالله باشا حاكم دمشق، كما طلب أحمد الجزار من الأمير بشير الشهابي أن يمنع الدروز من مقاتلته ومن تقديم المساعدة للفرنسيين. شن الفرنسيون هجومهم على المدينة يوم ٢٤ / ٣ أي بعد تسعة أيام من وصول سدنى وخمسة أيام من بدء الحصار الفرنسي.

وبعملية حسابية بسيطة يتضح أنه لو وصل الجيش الفرنسي إلى عكا قبل أربعة أيام لاستطاع احتلال المدينة بسهولة.

الإخفاق

إن ضياع أحد عشر يوما قبل احتلال العريش فوت على جيش "المشرق" الفرنسي فرصة الوصول إلى عكا قبل الأسطول الإنكليزي، وقد اضطر نابليون إلى أن يخصص عدة أيام للاستراحة وإعادة التنظيم، فلم يصل جيشه إلى أبواب عكا إلا يوم ١٩ / ٣، وكان من نتيجة هذا الإخفاق في التسابق أن اضطر الفرنسيون إلى فرض حصار واسع النطاق حول المدينة، واستطاع المدافعون أن يصدوهم مدة ٤٠ يوما بفضل وقوع المجموعة الأولى من معدات الحصار في يد الأسطول البريطاني، ووصول التعزيزات من الأناضول عن طريق البحر.

وقبل حلول يوم ٧ / ٥ أي عندما وصلت بقية مدفعية الحصار الثقيلة بطريق البر من يافا أيقن نابليون أن فرصته الأخيرة في إخضاع عكا قد ضاعت إلى الأبد، ولم يعد باستطاعة قواته أن تتغلب على التعزيزات التركية الجديدة المسلحة تسليحا جيدا ولا سيما أن الجنود الفرنسيين قد وهنت قواهم وضعفت روحهم المعنوية وسبقهم الأتراك عددا وعدة عما قريب.

لم يجد نابليون أمامه سوى حل واحد سليم فرفع الحصار يوم ٢٠ / ٥ وأسرع عائدا إلى مصر يجر وراءه أنيال الخيبة بعد أن قذف بقبعته من فوق السور عليها تدخل عكا على الأقل وهو يقول مشيرا

إلى أحمد الجزار "لولا هذا المملوك البشناقى لغيرت وجه العالم"،
وبذلك أدى إخفاق الحصار الذى ضربه حول عكا إلى فشل الحملة
بكاملها ورجوعه إلى فرنسا فى يوم ٩ / ١٠ / ١٧٩٩ ثم جلاء قواته
عن مصر فى ١٨٠١م.

الفصل الخامس

من حملات الأرض المقدسة: حملة إبراهيم باشا

خطة فتح الشام

إن خطة الغزو عبر صحراء سيناء بقيادة إبراهيم باشا ورئاسة سليمان باشا الفرنساوى متفقة إلى حد بعيد مع خطة نابليون، والفارق الوحيد أنه لم تكن للأخير السيادة البحرية التامة فى شرق البحر المتوسط نظرا لسيطرة قطع الأسطول الإنكليزى عليه حينذاك، وعدم تيسر حرية العمل، غير أن إبراهيم باشا استطاع أن يعتمد على قواته البحرية والبرية وينسق عملياتهما فى تعاون تام على غرار ما فعل الفراعنة من قبله، أمثال تحوتمس ورمسيس، إذ لم ينقطع الاتصال البحرى طوال مدة الحملة التى قسمت إلى قسمين، أحدهما اتخذ طريق البحر من الأسكندرية ووجهته يافا وقاعدته ثغر العريش، والآخر اتخذ طريق البر، ولقد كان تعداد الجيش النظامى المصرى حوالى سبعين ألفا آنذاك، أما القوات التى خصصت للحملة فكانت تتألف من: خمس وحدات مشاة (١) وأربع وحدات خيالة (٢) ومجموعة مدفعية تحتوى على أربعين مدفع ميدان وعشرين مدفع حصار وعشرة مدافع هاون، بالإضافة إلى ٤٠٠ جندى من المهندسين و ١٤٠٠ فارس من البدو، وقد بلغ تعداد الحملة ٢٥ ألفا زيدت فيما بعد بمجندين فلسطينيين وسوريين، كما كان الأسطول المصرى مؤلفا من ٢٣ سفينة حربية

١- آلاى رقم ٨، ١٠، ١٢، ١٣ + آلاى الحرس.

٢- آلاى ٣، ٥، ٦، ٧ وهى آلايات مدرعة ورماحة.

مختلفة بقيادة أمير البحر عثمان نور الدين باشا.

سير الحملة برا

حدد ميعاد حركة القوات البرية في بداية عام ١٨٣١ بيد أنه تأجل هذا الميعاد من جراء انتشار وباء الكوليرا في مصر، حيث قضى على حوالي خمسة آلاف من الجند، وبتاريخ ١٨٣١/١٠/٢٩ تحركت طلائع الحملة من معسكر الخانقاه بقيادة أمير اللواء إبراهيم يكن فمر بموقع بلبس والصالحية وقاطية وبئر العبد والعريش، وبعد أن أراح قواته لمدة يوم استأنف التقدم عبر خان يونس فوصل إلى غزة واحتلها دون أن يلقى مقاومة تذكر لأن قلعتها ظلت مهذمة منذ زمن الفرنسيين، ثم توجه نحو يافا ليضم قواته إلى الوحدات القادمة عن طريق البحر بقيادة إبراهيم باشا نفسه، فلما رست قطع الأسطول مقابل البلدة خرج وجهادها وعرضوا التسليم، وكانت حاميتها لا تزيد عن ٢٥٠ جنديا فنزلت سرية لستلمهم واستولت على مدافع قلعة يافا وكانت ٤٧ مدفعا بنحائرها، ولهذه البلدة موقع أهم من موقع غزة لقربها من البحر، وثغرها يسمح برسو السفن، وكان للمدينة سور وأبراج منيعة، وقد أرسل إبراهيم باشا كتيبة إلى القدس فاحتلها، ووضع حامية فيها ثم أصدر بعد فترة من الزمن منشوره الشهير الذي أعلنه على أهالي لبنان وفلسطين وهذا نصه:

"إنه ليس خافكم أن القدس الشريف محتو على معابد وأديرة ترد لأجل زيارتها جميع الأملال وفرقهم من كل فج ويقصدونها من سائر الأقطار والديار، فبحسب تواردهم كان يحصل عليهم المشقات الباهظة لسبب الأغفار الموضوعة بالطرقات، ولأجل إجراء الوفاق بين الناس صدرت أوامرنا إلى جميع المسلمين الذين في إيالة ألوية صيدا وألوية القدس الشريف ونابلس وجنين برفع هذه الأغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم.

حصار عكا - المرحلة الأولى

كانت عكا محصنة بأسوار متينة ذات أبراج منيعة فى الشرق والشمال، أما من جهة البحر فكانت الأسوار أقل متانة ولكن المياه المجاورة لها ضحلة لا تسمح باقتراب السفن الكبيرة، وكانت جميع الحصون فى حالة جيدة، وقد عملت رئاسة أركان الجيش المصرى لها مخططا مفصلا إيان الخطة. وكانت حامية المدينة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل تساندهم مدفعية قوية ولديهم كميات وفيرة من التموين والذخيرة تكفى لحصار طويل الأمد، وبالاختصار كانت استحکامات عكا غاية فى المنعة بفضل الإصلاحات التى شملتها عقب انسحاب الفرنسيين.

وقد قيل إن إبراهيم باشا عندما اقترب من عكا أرسل إلى والى المدينة عبدالله الجزار قبل أن يبدأ الهجوم يحثه على أن يسمح للنساء والأطفال جميعا بأن يغادروا المدينة، ولكن والى لم يكثر به فاستهل إبراهيم باشا محاصرة المدينة من البر والبحر يوم ٢٦ / ١١ / ١٨٣١ فتصدت له الحامية واستبسلت فى الدفاع، وقد ظل العكاويون متشبعين بروح القتال ولم يفتر حماسهم حتى النهاية، واستطاعت بعض مفارز الحامية فى عدة أبراج أن تحقق انتصارات محلية على قوات إبراهيم باشا، مما حدا به أن يطلق نيران مدفعيته أياها متوالية دون جدوى، وفى هذه الأثناء أرسل محمد على باشا مهندسا قديرا تولى الإشراف على أعمال الحصار فأمكن فتح ثغرتين فى الجهة الشرقية من السور، وأمطرت المدينة بوابل من القنابل والرصاص برا وبحرا فخربت المدينة، وأصيب الكثيرون من رجالها، ومع ذلك استمرت الحامية فى صمودها على الرغم من تهديم ثلاث ثغرات

أخرى، وأتلفت عدة سفن، وسيطرت على الموقف ثلاثة أشهر كاملة.

التوغل في سوريا

لم يضع إبراهيم باشا وقته عبثاً فأرسل بعض وحداته إلى الشمال واستطاعت أن تستولى على صور، وصيدا، وبيروت، وطرابلس بقيادة حسن المنسترلي، وهنا وضع أمام السلطان محمود في إستايول فوز إبراهيم باشا العسكري وتقدمه الخاطف، ووقوع ثغور بلاد الشام واحدا تلو الآخر، وهي مفاتيح ينفذ منها الفاتح إلى داخل البلاد فيهدد إمبراطوريته العثمانية. وكان هذا السلطان قد أعد جيشاً نظامياً قوامه عشرون ألفاً كنواة لقوات مسلحة حديثة بعد القضاء على القوات الإنكشارية في مذبحة فظيعة (١٦ / ٦ / ١٨٢٦) وعندما شعر بوطأة ضربات محمد علي باشا أصدر أوامره إلى القائد حسين باشا بعد أن رقيه إلى رتبة المشير (عسكر) بأن ينظم جيشاً آخر في الأناضول، كما عين عثمان باشا حاكماً على طرابلس إذا أعادها من يد محمد علي، وقد نجح عثمان باشا وهو في طريقه نحو اللانقية باتجاه طرابلس في أن يؤلب السكان ضد محمد علي.

هاجم عثمان باشا حامية طرابلس المصرية، ونجح فى بداية المعركة، ولكن الحامية المصرية عادت واستطاعت بقيادة مصطفى بربر ومساندة ٤٠٠ محارب من الدروز بقيادة خليل الشهابى أن ترد المهاجمين على أعقابهم وتنزل بهم هزيمة منكرة.

وصلت أخبار معركة طرابلس إلى أسماع إبراهيم باشا فعين أحد قادته مكانه وتوجه ببعض قواته يوم ٢٩ / ٣ / ١٨٣٢ إلى طرابلس ثم التحم مع قوات عثمان باشا فى معركة الزراعة جنوبى حمص وهزم الجيش التركى وأجبره على الارتداد إلى حماة، وهنا قرر الاحتفاظ بموقع بعلبك والسيطرة على ما حولها من مواقع أمامية ليحول دون وصول الإمدادات إلى الأتراك ويمنع قدوم أية قوة لمعاونة عبدالله الجزار وفك الحصار عنه.

التحول إلى عكا

استطاع القائد العام إبراهيم باشا ورئيس الأركان سليمان باشا الفرنساوى أن ينظما المواقع الجديدة ويوزعا القوات المتيسرة لهما على المناطق المفتوحة شمالى عكا، وعندما اطمأن إبراهيم باشا إلى الوضع عاد إلى عكا فى ٢٦ / ٥ / ١٨٣٢ وعقد اجتماعا لكبار ضباطه وأصدر الأوامر التالية:

أمير اللواء أحمد المنكلى يتوجه بلواته ومعه الكتائب: الأولى من الوحدة الثانية المشاة للهجوم على برج (قبو برجى - قلعة الباب - الباب)، والكتيبة الثانية المشاة تهاجم الثغرة المقابلة للنبي صالح.

الكتيبة الثالثة بقيادة عمر بك تهاجم الثغرة المعروفة بالزاوية.

تعين قوة احتياطية من الكتيبة الرابعة (الوحدة الثانية) تحت الثغرة

الأولى لمساعدة أى قوة تكون سباقة فى اقتحام السور.

كما صدرت أوامر أخرى إلى كتيبة من الوحدة العاشرة للوقوف تحت الثغرة الثالثة، وإلى كتيبة أخرى لنقل السلاح الساعة ١ إلى الخندق الواقع بجانب "قبو- برجى" والتمركز هناك، كما زود القائد العام كل قائد ميدان بالتعليمات المتعلقة به.

واشتغل المهندسون العسكريون بحفر الخنادق المتعرجة وإقامة متاريس قريبة من الأسوار ونصب المدافع فأتموا معظم هذه الأعمال فى ساعات الظلام، بينما كانت نيران المدفعية موجهة باستمرار على نقاط المقاومة فى المدينة.

وفى صبيحة يوم ٢٧ / ٥ / ١٨٣٢ عقب شروق الشمس صدر أمر القائد العام بالهجوم من كافة النواحي فى محاولة مستميتة لاقتحام الأسوار، وكان يشرف بنفسه على الأماكن التى يحمى فيها وطيس القتال، ويحث ضباطه وجنوده، ويعاقب المرتد منهم بالموت.

وقد طالت المعركة واشتد سعيها، ولما أذنت الشمس بالمغيب حمل إبراهيم باشا بقواته على المدينة حملته الأخيرة، وأبدى المدافعون عنادا شديداً فى بادئ الأمر، ولكنه أخذ يقل عما أبدوه فى أول النهار.

بيد أن شجاعتهم لم تحل دون سقوط المدينة والليل قد أرخى سدوله على أسوارها وأبراجها الخاوية.

جاء أعيان عكا إلى إبراهيم باشا يلتمسون الرحمة، فرأى فيهم أعداء يفخر بمحاربتهم ولم يسعه إلا أن يؤمنهم على أنفسهم،

وأموالهم، وبلغ منه أنه سمح لهم بالاحتفاظ بأسلحتهم، أما عبدالله نفسه فلم يعده بأكثر من تأمينه على حياته ولكنه تلقاه بما هو خليق بمقامه كوزير من وزراء الدولة، ولما طلب إليه أن يأتيه بأموال الدولة عملاً بشروط التسليم أجابه عبدالله الجزار:

لقد كان لى أسوار وجنود وأموال أذفع بها عن عكا، أما الأسوار فقد دكت وأما الرجال فقد كان معى منهم ثلاثة آلاف هلك منهم ألفان وستمائة، وأما الأموال فلم يبق منها إلا جواهر قليلة.

فقال إبراهيم باشا:

إنى لا ألومك على مقاومتك إياى لأننا صنوان، ولكنك قد عدوت طورك إذ أردت أن تقف فى وجه محمد على".

فاجابه على الفور:

"إن إرادة الله هى التى أوقعتنى فى يدك، والخطأ الذى وقعت فيه هو أننى بالغت فى الاعتماد على السلطان، لكن حظ السلطان من الشرف ليس أكثر من حظ النساء، ولو أنى عرفت خلقه لاختطت لنفسى خطة أخرى، ولو فعلت لما كنت الآن أسيراً بين يدك.

وكان طبيعياً أن يعمل الجند النهب فى عكا مثلاً يفعل أمثالهم فى الشرق والغرب قديماً وحديثاً رغم الأوامر التى تنهاهم عن ذلك، وبالفعل انطلق الجنود من عقالهم وتوغلوا فى الأحياء المهدمة بيد أن النظام لم يلبث أن أعيد فى صباح اليوم التالى كما أعيدت بعض الأسلاب إلى الأهالى.

الشئون الإدارية

لابد لهذه الحملة الكبيرة أن تتخذ ترتيبات إدارية منظمة، ففضلا عما كان يحمله الجندى المصرى من أرزاق الميدان كان البقسماط يرسل باستمرار على سفن من مصر إلى ثغور بلاد الشام، وقد أنشئت المستودعات فى المدن والموانئ لتخزين كميات وفيرة من الأرزاق الجافة والعلف، والذخائر وأملاح البارود والخرطوش والأكياس والقذائف الحجرية، وغير ذلك من المعدات واللوازم المطلوبة فى ذلك العصر، وكان يرسل بانتظام كشوف عن الموجود فى هذه المستودعات كلما امتدت خطوط المواصلات، وقد حفظت لنا المراجع اسم أول مدير للتموين والنقل فى هذه البلاد بالمعنى الحديث، وهو نظيف بك الذى أشرف على إدارة هذه المستودعات الكبيرة المنتشرة فى أرجاء سيناء وفلسطين وسوريا، وقد جاء فى تقرير من المهندس قاسم آغا بتاريخ ٢٤ من رمضان ١٢٤٧هـ (١٨٣٢م) ما يلى: بما أن الجيش المصرى أصبح بعيدا عن مصر يحول بينه وبينها الصحراء وأن طريق البحر ليس بأمون دائما وأنه ليس هناك غلال لتموين الجيش لسبب ما استحکم فى البلاد المفتوحة من القحط والغلاء فأقترح إنشاء مخازن للغلال مع وسائل النقل اللازمة لإيصال مئونة الجيش من مصر إلى محطة فمحطة حتى المعسكر، ثم استطرد هذا المهندس فى تقريره يوصى بإنشاء مستشفى رئيسى فى دمياط لمعالجة المرضى والمصابين، ومن ثم تشكيلهم فى وحدات جديدة تتولى أعمال الحراسة أو سد النقص فى الوحدات المحاربة.

وقد اضطر محمد على قبل عشرين عاما من هذه الحملة أن ينهض بجميع مرافق القطر المصرى من تعليم وصحة وتجارة وصناعة

وزراعة كى يتسنى له إنشاء قوات مسلحة حديثة لينجد بها السلطان عندما كان على وفاق معه، أو ليوسع مملكته فيما بعد، فتدرب جنده فى حروب المورة وكريت والجزيرة العربية والسودان، وما رسوا كافة فنون القتال فوق مختلف الأراضى فى المناطق الحارة والباردة، وقد استعان محمد على بالضباط الذين استقدمهم من أوروبا، وكان أشهرهم رئيس الأركان سليمان باشا الفرنساوى (١) وكان نابغة فى الأمور التعبوية والسوقية، وأنشأ محمد على مدارس للمدفعية والهندسة والفرسان والموسيقى والخدمات الطبية والأركان والمشاة، وأقام مصانع الأسلحة وصب المدافع فى "ترسانة" القلعة كما شاد معامل للبارود فى جزيرة الروضة والبدرشين والفيوم، ومصانع للغزل والنسيج والبطاطين والطرايش وسبك الحديد وطرق ألواح النحاس ودبغ الجلود وعمر القلاع والحصون على السواحل وأضحى محمد على التاجر الوحيد ثم الصانع الوحيد فسيطر على اقتصاديات البلاد وضبط مواردها.

ثورة فلسطين

حاول بعض مشايخ جبل نابلس، والمعادين لآل عبدالهادى أن يعلنوا الثورة فى جبلهم عليهم يفوزون ببعض المناصب فى عهد إبراهيم باشا، ولكنهم لم يلقوا تأييدا كاملا من أهالى المنطقة فانتقلوا إلى القدس فى شهر نيسان عام ١٨٣٤، ومعهم عشرون ألف محارب من الأهالى المؤيدين لهم، وحاصروا حامية القدس مدة ٢٠ يوما، ثم تمكنوا من دخول أحد السرايب القريبة من مقام النبى داود، فنفذوا

١- جند برتبة عقيد ثم تدرج فى المناصب حتى أصبح رئيسا للأركان واسمه الأصلى سيف "Seves" ومر من أهالى ليون وعلم فى جيش نابليون.

إلى داخل المدينة ونهبوا محتوياتها وذبحوا رجال الحامية وعددهم ألف جندي، ثم امتدت نار الثورة إلى جبل الخليل فهب رجال المدينة وهاجموا الحامية وذبحوا رجالها أيضا وقد بلغ عددهم ٢٠٠ جندي.

ولما بلغ إبراهيم باشا الخبر توجه على رأس ٥٤٠٠ جندي نحو القدس، واصطدم في طريقه مع جموع أبي غوش التي ساءها المنشور السابق ذكره الذي يمنعها من جباية "الحوة" من الحجاج والمسافرين، ف وقعت معركة حامية في قرية العنب غربى القدس، استمرت من الظهر إلى المساء ولولا أن دير الروم قدم الزاد اللازم لقوات إبراهيم باشا لتضعضت معنويات جنوده، وفي الصباح استؤنف القتال بين الطرفين، وتغلب الجيش النظامى على رجال العشائر ودخل القدس عنوة فتشرد المشايخ وتحولوا إلى جبل نابلس لإشعال نار الثورة من جديد.

جمع الشيخ قاسم الأحمد والشيخ عيسى البرقاوى (٢) خمسة وستين ألفا من محاربى جبل نابلس وأقاموا فى المدينة فترة من الوقت رتبوا فيها أمورهم ورسوموا خططهم ثم توجهوا ثانية إلى القدس، ولما وصلوا إلى الشيخ جراح وعسكروا هناك انصبت عليهم نيران مدافع إبراهيم باشا، وكان عربان الغور الذين لم يألّفوا الحكم النظامى وما يترتب على ذلك من تجنيد وضرائب قد ظهروا بالقرب من "عين سلوان" كما بدت جموع جبل الخليل بقرب "مار إلياس"، وعلى الرغم من أن إبراهيم باشا استطاع أن يدحرهم جميعا ويتغلب عليهم فإنه خسر كثيرا من جنوده ومعداته، وعند ذلك توسط رؤساء الأديرة

١- لاتزال قلعة تطل على سبسطية وبرقة من الشرق.

بالصلح بينه وبين الثوار وحملوه على أن يرسل إلى الشيخ قاسم
الأحمد كتاباً رقيقاً قبل فيه الشروط التالية.

١- أن ترفع عن البلاد "الفردة" أي الضريبة على الرءوس.

٢- يلغى التجنيد الإجبارى.

٣- يسحب الجند من البلاد (باستثناء حامية صغيرة من القدس).

غير أن سليمان باشا الفرنساوى تمكن من استمالة آل أبى غوش
بعد أن فك أسر كبيرهم من سجن عكا فأمن مواصلات الحملة بين يافا
والقدس، كما استمال إبراهيم باشا بعض الشيوخ الآخرين فقطع علاقته
بالشيخ قاسم الأحمد.

توجه إبراهيم باشا بعد ذلك إلى يافا ليقابل والده الذى كان القناصل
قد أخبروه بأن ابنه محاصر فى القدس فجاء ينجده بثلاثة آلاف، أما
الشيخ قاسم الأحمد فإنه جمع مؤيديه وقال لهم لولا عجز إبراهيم باشا
لما قبل بشروطنا، والآن وقد نكث بها فالأوفق أن نعود إلى طاعة
السلطان، فذهب إلى منطقة طولكرم وحشد رجاله فى قرية دير
الغصون كما حشد إبراهيم باشا جنده فى قرية زيتا المقابلة لها، وهناك
دارت رحى حرب شعواء زهق فيها أرواح ٧٠٠ من الأهالى،
فرجحت كفة الجيش النظامى، وعوقبت القرى العاصية، وهرب الشيخ
قاسم الأحمد وغيره من المشايخ فاقتفى إبراهيم باشا أثرهم وأتى بنى
صعب وقبض على الشيخ عيسى البرقاوى فى وادى الشعير، ثم التقى
بجموع آل جرار ودحرهم إلى صانور وحاصرهم فيها وضرب القرية
بمدافعه، واضطربهم إلى التسليم، ثم تمركز فى موقع سيلة الظهر
ونادى فى جيشه بإباحة نابلس وهدمها فى ظرف ثلاثة أيام، ولكن

تمكن أحمد أغا النمر أن يهدىء من غضبه ويذكره بمآثره وفروسيته، فعفا عن المدينة وتوجه إليها ونصب صوانة في بستان البصة بوادي نابلس قرب عين بيت الماء على الطريق العام، ووفد عليه المشايخ والوجهاء مرحبين خاضعين.

تسلل الشيخ قاسم الأحمد من نابلس واستجار بعشيرة العدوان في البلقاء فتبعه إبراهيم باشا بجيشه ودخل السلط وتغلب على محاربي العدوان وأنصارهم من بني صخر، وقبض على عقيد عشيرة العدوان الأمير نياض الحمود بعد أن أظهر شجاعة فائقة، وتخلص من التطويق ثلاث مرات، فدهش له إبراهيم باشا وقدر شجاعته فلم يقتله بل اكتفى بسجنه، أما الشيخ قاسم الأحمد فتمكن من الهرب هو وأولاده ورجال الثورة واستجاروا بأهالي الخليل، فتوجه إليهم إبراهيم باشا، ولما علم أن أهالي جبل الخليل وبقية الثوار تقدموا باتجاهه حتى وصلوا إلى برك سليمان بادرهم بالسؤال: أطاعون أنتم أم عاصون؟ "فأجابوه: عاصون ثم عاصون!"

ولم يكن رده عليهم إلا نيران المدافع، فدحروهم إلى مدينتهم وأمعن في تقتيلهم وتعذيبهم، وقد تسمت إحدى عائلات الخليل بلقب يعيد إلى الأذهان رهبة هذه المنبحة التي لم ينج منها إلا من هاجر خارج البلاد أو احتوى داخل الحرم الإبراهيمي. ثم عين إبراهيم باشا أركانه سليمان باشا الفرنساوي واليا على المدينة، وأخذ كثيرا من شباب المدينة جنودا إجباريين في جيشه النظامي.

لحق إبراهيم باشا إلى القدس وحصنها وبنى قلعتها الحالية بباب الخليل، وجمع باقي مشايخ جبل نابلس وحكام البلاد في عكا، وجعلهم

يقرون نظام الخدمة الإجبارية (من العشرة واحد)، وبقي في بلاد الشام يقاسى من دسائس الأجانب، وحزب الدولة وثورات الأهالي هنا وهناك إلى أن تغلبت عليه الدول الأوروبية بنفوذها وسطوتها فانتهى حكمه عام ١٨٤٠.

الفصل السادس

حملة النبي

مقدمه

كان السلطان العثماني سليم الأول (١٤٧٠ - ١٥٢٠) قد أنهى حكم المماليك في بلاد الشام على أثر انتصاره في معركة مرج دابق في سنة ١٥١٦، وفي السنة التالية احتل مدينة القدس، فبقيت تحت الحكم العثماني باستثناء الفترة بين سنتي ١٨٣١-١٨٤٠ وكانت خلالها تحت حكم إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا إبان حملته على سورية، وقد ترك إبراهيم باشا سورية سنة ١٨٤٠ بنتيجة ضغط الدول الكبرى، فعادت إلى الدولة العثمانية، وقد تميز الحكم العثماني في فلسطين منذ القرن السابع عشر بظهور الخلافات بين الطوائف المسيحية المختلفة ونزاعها على النفوذ في الأماكن المقدسة، وكانت إحدى نتائج هذه الخلافات «حرب القرم» سنة ١٨٥٣ بين روسيا التي ادعت حماية الأورثوذكس، وفرنسة وإنكلترة اللتين ادعيتا حماية اللاتين، وفي أعقاب حرب القرم بدأت الدولة العثمانية بإدخال بعض الإصلاحات التي تقضى بالمساواة بين جميع الرعايا العثمانية، وسمحت بتعيين قناصل للدول الأجنبية في القدس، وبذلك بدأ التخلخل الاستعماري في فلسطين، وجد معه ازدياد الهجرة اليهودية وتفاقم عدد اليهود في فلسطين تدريجيا.

وتحولوا إلى فلسطين فصارت أهم الجبهات التي دارت فيها معارك حاسمة بين القوات البريطانية والتركية التي دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا، وكان القائد التركي جمال باشا قائد الجيش الرابع والملقب

بالسفاح قد حاول الهجوم على السويس، فلما فشل في محاولته انكفأ نحو فلسطين تاركاً في سيناء قوة تركية بقيادة الجنرال «فون كرس»، وكانت القيادة البريطانية تحاول الحصول على مكسب استراتيجي، ورأت في احتلال فلسطين ودخول القدس ما يحقق لها ذلك فأخذت تستعد للزحف على صحراء سيناء نحو العريش، وشرعت في مد خطوط السكة الحديد باتجاه فلسطين وعززت قواتها بالدبابات والمدافع الثقيلة.

ووصل الجنرال اللنبي إلى القاهرة في حزيران (يونية) سنة ١٩١٧، حاملاً أوامر من الحكومة البريطانية باحتلال فلسطين.

القصـد من الحملة

كانت قوات الحلفاء المرابطة في الميدان الغربي بفرنسا في حالة ركود نسبي بعد الانتكاسات التي منيت بها، وعلى الرغم من أن الحلفاء كانوا يعتبرون ميدان الشرق الأوسط جهة ثانوية إلا أنهم أرادوا إحراز أي نصر كان، ليرفعوا من مستوى الروح المعنوية بين شعوبهم.

الزحف والهجوم على غزة

اجتازت قوات الحملة شبه جزيرة سيناء فى بداية عام ١٩١٧ بقيادة الفريق مورى الذى مد وراءه خطا للسكة الحديدية وخطا للمياه وشن هجوما على مدينة غزة بغية احتلالها والاندفاع نحو الشمال، غير أن الأتراك استطاعوا صد هذا الهجوم على عكس ما توقع الإنكليز، وقد أنزلوا بهم خسائر فادحة، وعندما حاول الإنكليز شن هجومهم الثانى أصيبوا بخسائر أشد وأنكى من خسائرهم الأولى، غير أن الحكومة البريطانية قررت استمرار عمليات غزو الأرض المقدسة وعينوا الفريق آدموند اللنبى للقائد السابق للجيش الثالث بفرنسا ليقود الحملة اعتبارا من ٢٨ / ٦ / ١٩١٧.

محور الزحف

لاشك أن خط الزحف الطبيعى على فلسطين يجب أن يحاذى الساحل لأنه أقصر الطرق وأمنها، ولاسيما أن أسطول الحلفاء كان مسيطرا على البحار، ويستطيع إسناد المشاة على الرغم من وجود الغواصات الألمانية، ولكن غزة أصبحت قلعة حصينة تعترض سبيل تقدمهم، كما أن جبهة القوات التركية الوسطى كانت قوية هى الأخرى، ولا يمكن الاقتراب منها إلا عبر سهل منبسط مكشوف تشرف عليه سلسلة من التلال المقفرة، أقام فوقها الأتراك عدة تحصينات منيعة، وكان جناحهم الأيسر ممتدا مسافة أربعة أميال من بئر السبع، غير أن استحکامات هذه المنطقة كانت أضعف من استحکامات منطقة بئر السبع، كما أن طبيعة الأرض أكثر ملاءمة للعمليات التعرضية، وقد أتاح مرتفع لهذا المكان المجال للالتفاف حول

مؤخرة القوات التركية، وأن يستولوا على آبار المياه فيها.

وفى شهر آب قسم الفريق للنبي قواته إلى ثلاثة فيالق، ونقل مقر قيادته من القاهرة إلى الميدان، وكان الطقس قاسيا ودرجة الحرارة مرتفعة جدا.

الهجوم على بئر السبع

كانت الخطة فى غاية البساطة، وهى تتلخص فى حشد قوة كبيرة ضد جناح الأتراك الأيسر مع إيهامهم بأن القصد هو مهاجمة جناحهم الأيمن فى غزة، وقد تبلورت هذه الخطة إثر اجتماعات كثيرة ترأسها النبي بنفسه، وجاء استيعابه لجميع تفاصيل المعركة كاملا من حيث نواحيها السوقية والتعبوية والإدارية، وقضت خطة الاقتحام أن يُشكّل الفيلق العشرون وفيلق فرسان الصحراء (يعادل القوة المدرعة فى الوقت الحاضر) القوة الضاربة الرئيسية ضد الجناح الأيسر التركى، بينما يشاغل الفيلق الأخير وهو الفيلق الحادى والعشرون القوات التركية المتمركزة فى غزة.

تبدت صعوبات جمة أمام الحلفاء أهمها وعورة المسالك وشحة المياه وصعوبة المحافظة على عنصر المفاجأة، ولم يكن هينا تحديد موعد بدء العملية، فهناك وحدات لم تصل بعد، ويُخشى حلول فصل الأمطار الغزيرة فى أواسط شهر تشرين الثانى حيث يتحول السهل الساحلى إلى شبه مستنقع من الوحول، وقد ظهرت دلائل تشير إلى أن الأتراك ستعززهم قوات قادمة من الشمال.

وأخيرا عين موعد الهجوم على بئر السبع كبدائية للشروع فى معركة غزة بوابة فلسطين الجنوبية ليلة ٣٠، ٣١ / ١٠ / ١٩١٧ عندما

اكتمل القمر بدرًا، فتحرك ما لا يقل عن أربعين ألف جندي في أضخم زحف ليلي منظم لم يحدث له مثيل من قبل، فاحتل مشاة الفيلق العشرين التحصينات الرئيسية بعد الظهر وأحرزوا نجاحًا تامًا، ولكنه اعتبر بمثابة انتصار ثانوي لأن البلدة وآبارها مازالت تبعد ثلاثة أميال أو أربعة فأوكلت مهمة احتلالها لفيلق فرسان الصحراء الذي اعترض طريقه "تل السبع" المتحكم على مشارف البلدة من الشرق، فاندفع أحد ألويته الخفيفة وشن على عاتقه هجومًا خاطفًا على الرغم من جهله بطبيعة الأرض، واستطاع في النهاية أن يصل إلى آبار المياه قبل الضوء الأخير، فاستولى عليها دون أن يتمكن الأتراك من نسفها. وفي اليوم التالي دخل النبي مدينة بئر السبع.

وبعد مرور ثمان وأربعين ساعة استغرقت في عمليات الكشف وجلب المياه والاستعداد حان وقت مشاغلة الأتراك في غزة بهجوم يشنه الفيلق الحادي والعشرون ليلة ٢٠١ / ١١ / ١٩١٧ فأمكن استئراج التعزيزات التركية إلى منطقة غزة مقابل خسائر فادحة تكبدها ذلك الفيلق، وقد خشيت القيادة العامة التركية في ذلك الوقت أن تتعرض مدينة القدس للهجوم عن طريق الخليل، فأرسلت تعزيزات جديدة لحماية القدس، واسترجاع بئر السبع، فاضطر الحلفاء إلى تأجيل هجومهم بثلاث فرق منتخبة، وأمكن اختراق الجناح فسقط هذا الموقع السوقي المهم بعد أن استعصى احتلاله مرتين وأعاق توقيت الحملة ثمانية أشهر، فبدأت عملية المطاردة عبر السهل الساحلي بمساندة الأسطول من البحر.

المطاردة عبر السهل الساحلى

إن حركة المناورة التى كان اللنبى يفكر فيها لإتمام انكسار جبهة غزة - بئر السبع هى استثمار النجاح بواسطة القوات الراكبة واحتجاز فلول الأتراك بعد استباقها بدون مطاردتها إلى أن تتقدم المشاة والمدفعية لتضرب مقدمة الأرتال المنسحبة أو أجنتها بدلا من مؤخرتها القوية، وتقطع طرق مواصلاتها فصدرت الأوامر يوم ٦ / ١١ إلى فيلق الصحراء بأن يتحرك استعدادا لاستثمار ما يحرزه الفيلق العشرون من نجاح، وفى مساء يوم ٨ / ١١ انتهت المرحلة الأولى من عملية الاستثمار دون أن تتجح القوات التركية فى احتجاز القسم الأكبر من الأتراك الذين كان موقفهم حرجا على الرغم من أنهم نجوا من الفناء ولم يتمكنوا من الثبات عند وادى حسى، وكان أنسب خطوط الدفاع الطبيعية لهم بعد ذلك هو نهر سكرير الذى يبعد شمالا بنحو ١٥ ميلا، وقد جرى استخدام سلاح الجو فى هذه المرحلة لقذف فلول الأتراك بقنابلهم ولرميهم بالرشاشات، وكانت تقاريره تفيد بأن الجيشين السابع والثامن التركيين فقدوا قواهما المعنوية وأوشكا على نهايتهما، فأصدر اللنبى أوامره يوم ٩ / ١١ بتطويق جبهة نهر سكرير، وتقدمت ثلاث فرق باتجاه المجدل وبيت دوراس وأسدود، فأسرت بعض وحدات الجيش الثامن التركى، وقد ذكر فون كرسنشتاين مدى الذعر الذى دب فى معسكر هذا الجيش بعد الظهر عندما ظهرت دلائل الاختراق الذى قامت به الفرسان، وفى ذلك اليوم أمكن التقاط برقية تركية أفادت أن الأوامر صدرت إلى الجيش السابع التركى لشن هجوم معاكس من الخليل ضد جناح الإنكليز الأيمن، وقد تجاهل اللنبى هذا التهديد، واكتفى بتحريك لواء الهجانة من بئر السبع

إلى النجيلة ليكون على جنب أى هجوم يوجه ضده من التلال، وظهر فيما بعد أن القوة المرسلة من الخليل لم تصل سوى قرية بيت جبريل.

قامت إحدى فرق فيلق الصحراء بمسير ليلي من هوج ليلة ٩، ١٠ / ١١ وتمركزت قرب عراق المنشية والفالوجة، كما أقامت فرقة أخرى رأس جسر على نهر سكرير، وتقدمت فرق الفيلق الحادي والعشرين نحو أسدود، وتمركزت فرق الفيلق الثاني والعشرين شمالي بئر السبع، وعند هوج وكرم وفي هذين اليومين اشتدت مقاومة الأتراك، واتضح أنهم ينوون الثبات لحماية مفرق سكة حديد القدس، فتمركزوا في وادي الصرار وبمحاذاة نهر روبين.

أصدر النبي أوامره باستئناف الهجوم جنوبى الطريق الرئيسى بين غزة ومفرق السكك الحديدية صباح يوم ١٣ / ١١ وتم له الاستيلاء على تل الترمس وقسطينة والمسمية، وتوقف الهجوم أمام قطرة والمغار وزرنوقة والقبية، ولم تسقط هذه القرى الأربع إلا بعد قتال مرير، وعلى الرغم من أن اللواء المكلف بالاستيلاء على محطة مفرق السكك الحديدية توقف عن التقدم بسبب طول الظلام، فإن المقاومة التركية انهارت وكانت القوات التركية بكاملها في حالة تقهقر تام، وجرى احتلال المحطة صباح اليوم التالى.

وفى يوم ١٥ / ١١ استمر التقدم نحو اللطرون، وتم الاستيلاء على اللد والرملة، وكان الجيشان التركيان السابع والثامن منفصلين ولا يصل بينهما سوى مؤخرة احتلت المرتفعات المحيطة بقرية أبى شوشة، وبعد طرد هذه المؤخرة احتلت إحدى الفرق اللطرون كما دخل أحد الألوية مدينة يافا بدون مقاومة، وبالإستيلاء على هذا الميناء

وانسحاب الجيش الثامن خلف نهر العوجة، واحتماء الجيش السابع بين جبال القدس، انتهت عملية المطاردة عبر السهل الساحلى.

الاستيلاء على القدس

كان الجيش الثامن التركى معتمدا فى تموينه على الخط الرئيسى للسكك الحديدية كما اعتمد الجيش السابع على الطرق البرية القادمة من نابلس أو من عمان الواقعة على سكة حديد الحجاز، ونظرا لرداءة المواصلات بين جناحى الجيشين لم يبق أمام اللبى سوى أن يختار أى الجيشين يقاتل أولا، وعلى الرغم من أنه قرر فى السابق أن يتوقف بعد تطهير السهل الساحلى ولا يقتحم الأراضى الجبلية الوعرة إلا بعد إعادة تنظيم مواصلاته، غير أنه صمم على استثمار ما أحرز من نجاح، وقرر التقدم فورا نحو القدس قبل أن يتوافر الأتراك والوقت الكافى لتحسين الممر السفلى.

وبتاريخ ١٨ / ١١ / ١٩١٧ تقدمت إحدى الفرق واحتلت قرية بيت عور التحتا وواصلت فرقة أخرى تقدمها فاحتلت قرية سريس بعد الظهر عقب قتال عنيف فوق مرتفع يحيط بقريتى سريس والعناب، ولم يتيسر فى هذه المعركة إسناد المشاة بنيران المدفعية إلا قليلا بسبب صعوبة تحريك المدافع خارج الطريق فى جزئه المار عبر مضيق باب الواد، ثم تحولت هذه الفرقة فى تقدمها واتجهت شمالا بشرق نحو مدينة البيرة التى كانت مستعصية على فرقة أخرى، وعندما وصلت إلى قرية بدو ظهر لها أن مرتفع النبى صمويل يتحكم فى مواصلاتها فاحتلته قبيل منتصف الليل، وقد ظهر فيما بعد أن احتلال هذه القمة البالغة الأهمية هو أقصى ماوصل إليه الإنكليز فى

محاولتهم الأولى للاستيلاء على القدس، فقد شن الأتراك ثلاث هجمات معاكسة على النبي صمويل، كما ردوا إحدى الفرق نحو قرية بيت عور الفوقية، فاضطر النبي في اليوم الرابع والعشرين أن يصدر أوامره بإيقاف الهجوم وتعزيز الجبهة، لأن الأتراك كانوا متمركزين في مواقع حصينة تتطلب التعزيزات ولاسيما المدفعية.

انتفع الأتراك بالفترة المنقضية بين المحاولة السابقة وبين الهجوم النهائي على القدس فشنوا عدة هجمات معاكسة بقوات خاصة أسموها وحدات الاقتحام، ولم يعرف مغزاها التعبوي، ولكنها بدون شك ألمانية الفكرة، فقد كان الإنكليز منهوكي القوى وفي موقف يسمح بإجراء هذه العمليات الانتقامية التي تمخض عنها انسحاب الفرقة المتمركزة في بيت عور الفوقية. بدأ الهجوم الرئيسي فجر يوم ٨ / ١٢ وكان الارتكاز على اليسار وليس على اليمين، كما حدث في السابق، فاندفع جناح الفيلق العشرين الأيمن عبر ضواحي القدس الغربية مارا بطريق نابلس مباشرة، وتمركز لواءان قداما من الخليل شرقي بيت لحم لحماية ميمنة الهجوم وقطع مواصلات القدس مع أريحا.

قدرت قوة الجيش التركي السابع بما يتراوح بين خمسة عشر وستة عشر ألف مقاتل، وكانت مواقعهم غربى القدس محفورة في سفوح التلال وهي منيعة، ويتألف بعضها من ثلاثة خطوط لإطلاق النار، كانت مقاومة الأتراك أقل من المعتاد بسبب توالى الانهزامات، وقد استطاعت إحدى الفرق أن تحتل ما وراء قرية بيت أكسا، كما استطاعت أخرى أن تحتل قرية دير ياسين، ثم توقف التقدم بعد الظهر بسبب هطول الأمطار، وتكاثف الضباب، وأمرت القوات بتعزيز

المواقع المكتسبة ثم استئناف الهجوم فى اليوم التالى، غير أن ما بذلته من جهود لغاية الآن كان كافيا لكسب المعركة دون أن يكتشفوا ذلك فى حينه، فقد خسر الأتراك أقوى مواقعهم ولم يبق لديهم أى أمل فى الدفاع عن القدس، فانسحبوا ليلة ٨، ٩ / ١٢ / ١٩١٧ وغادر آخر جندى تركى المدينة مع الفجر، وانتهى بذلك حكم الأتراك الذى دام أربعة قرون ليبدأ عهد الانتداب البريطانى.

عبور نهر الاردن

كان استئناف تقدم اللبى مثار جدل عنيف بين مؤيدين ومعارضين، وقد لوحظ أن المحك الرئيسى للآراء هو مناعة خط الحلفاء فى الميدان الغربى بفرنسا أو عدم مناعته، وهل تقضى الضرورة بسحب قوات من فلسطين لتعزيزه؟ فقد كان المعارضون يحبذون عدم المجازفة مرة أخرى فى جبهة منفصلة فى الشرق، ويعتبرون سلامة الميدان الغربى على جانب كبير من الأهمية، لأن الهزيمة هناك معناها خسارة الحرب مهما كانت درجة الانتصار فى الشرق، كما أن الاستيلاء على دمشق أو حتى على حلب لا يهدد أواسط تركيا ولا يرغمها على الاستسلام إذا رأت حليفها ألمانيا تجتاح فرنسا، وكانت أهم الفوائد هو فتح الدردنيل للوصول إلى روسيا، وقد زالت هذه الفائدة بخروج روسيا من الحرب، علاوة على ذلك فإن حملة فلسطين مضیعة لبواخر التموين والإمدادات التى تضطر لاجتياز أشد مناطق الغواصات خطورة فى البحر الأبيض المتوسط، وأهم ما احتاجه الحلفاء وقتئذ هو البواخر لنقل الأمريكیین إلى أوربا فلا ضرر من ترك تركيا تدمى حتى تموت دون أن تؤذى أحدا بينما تركز الجهود فى الميدان الغربى لمواجهة الضربة الألمانية المنتظرة.

أما المؤيدون فإنهم كانوا بدون شك يدركون أهمية الميدان الغربى ولكنهم اعتبروا القوات المتمركزة فى فرنسا وبلجيكا كافية للحفاظ على سلامة هذا الميدان، وأن انفلات زمام المبادرة فى كافة الميادين والاتكال على موقف دفاعى محض ما هو إلا عمل اليائس، وقد يكون مسرح فلسطين مضیعا للبواخر ولكن المسرح الغربى مضیعا للأرواح، وهو أشبه ما يكون بشقى الرحى يسحق فيه مقاتلو الطرفين

دون إحراز تقدم يذكر.

وأخيرا قرر مجلس الحرب الأعلى للحلفاء الذى انعقد بفرساي فى شباط عام ١٩١٨ اتخاذ موقف دفاعى فى الميدان الغربى وتوجيه ضربة قاضية فى فلسطين، فاستأنف اللبى تقدمه، وكانت تقضى خطته بالتقدم باجتياز نهر الأردن أولا ثم التقدم بعد احتلال واديه نحو عمان لنسف سكة حديد الحجاز وعزل القوات التركية المتمركزة فى المدينة المنورة، ولا سيما أن ساعد الثورة العربية الكبرى قد اشتد. وبعد أن يوهم الأتراك بأنه غير محور تقدمه يتحول فى فصل الجفاف إلى السهل الساحلى ليستولى على خط طبرية - حيفا ثم يواصل تقدمه شمالا.

وفى الجانب التركى اتخذت إجراءات حكيمة فى الوقت المناسب، فقد استدعى على الفور وحدات من الجيش السابع المتمركزة شرقى نهر الأردن لتعزيز القوات المتمركزة على طريق بيسان - أريحا وطريق نابلس - القدس. كما تولى الفريق ليمان فون ساندروس الألمانى قيادة مجموعة الجيوش التركية بفلسطين فى أول آذار بدلا من فون فولكتهين.

بدأت العمليات الحربية يوم ١٩ / ٢ / ١٩١٨ وتم احتلال مدينة أريحا، ولكن فشلت عملية اقتحام نهر الأردن عبر جسر الغورانية (جسر الملك حسين حاليا وجسر اللبى سابقا)، وكان الموقف يتطلب طرد الأتراك شمالا فى وادى الأردن نفسه وفى سلسلة الجبال الشرقية كى يتسع مجال المراقبة ويصعب على الأتراك حشد قواتهم لشن الهجمات المعاكسة، فأنيط بالفيلق العشرين مهمة طرد الأتراك شمال

العوجة والاستيلاء على المرتفعات المحيطة بأبى التلول التى تتحكم بمياه نهر العوجة وبطريق بيسان - أريحا، والتقدم بمحاذاة طريق نابلس لغاية خط كفر مالك - سنجل - النبی صالح، كما أنيط بالفيلق الحادى والعشرين مهمة الاندفاع بميمته حتى خط وادى دير بلوط - مجدل يابا، تنسيقا للعمل مع الفيلق العشرين، وقد اشتبك هذان الفيلقان فى قتال عنيف دام أربعة أيام، وفى يوم ١٢ من آذار وصلا إلى أهدافهما وأصبح طريق الإغارة على عمان مفتوحا، إلا أن هطول الأمطار الغزيرة وارتفاع منسوب مياه النهر عرقل العمليات الحربية التى دامت من ٢١ من آذار لغاية ٢ من نيسان، ولم تستطع القوة الرئيسية عبور نهر الأردن إلا يوم ٢٣ من آذار، وفى صباح اليوم التالى شنت هجوما على المواقع التركية قرب الشونة، واستولت عليها بعد قتال عنيف، ثم تقدمت على طريق السلط متجشمة مصاعب جمة بسبب وعورة الطريق، وقد استطاع لواء فرسان أسبرالى أن يستولى على مدينة السلط مساء يوم ٢٥ من آذار، ثم استأنفت القوات الراكبة تقدمها نحو عمان، ولحقت بها سريتا فرسان أخريان، ولكنهما تأخرتا قرب صويلح بسبب اندلاع حرب محلية بين الشركس والعرب.

وعندما لم يستطع الإنكليز أن يستولوا على عمان بدعوا انسحابهم ليلة ٣٠، ٣١ آذار بعد أن تمكنوا من قطع السكة الحديدية شمالى المدينة وجنوبيها، وفى هذه الأثناء هاجمت قوة تركية قدمت عن طريق جسر داميا مدينة السلط، وقبل أن يحل مساء يوم ٢ نيسان كانت جميع القوات الإنكليزية قد ارتدت عبر نهر الأردن ولم يبق شرقيه إلا رأس جسر قرب الغورانية.

وعلى الرغم من أن الألمان بدعوا في ذلك الحين هجومهم العام في فرنسا ورحل الإنكليز فرقتين من فلسطين إلى الميدان الغربى لم يكن للنبي راضيا باتخاذ الموقف الدفاعى الذى أمر به يوم ٢٧ من آذار، لقد حاول أول الأمر أن ينفذ خطة سابقة تقضى باندفاع ميمنة الفيلق الحادى والعشرين، ولكنه تكبد خسائر غير قليلة من ٩-١١ نيسان لم يبررها مساحة الأرض التى كسبها بسبب كثرة أعشاش الرشاشات بين صخور الجبال، وعدم تمكنه من إحراز المفاجأة لأن الأتراك عثروا على نسخة من أوامر العمليات فى ملابس جثة أحد الضباط وحينئذ أراد النبي إيهام الأتراك بأنه يقصد مهاجمة ملتقى شبكة السكك الحديدية فى درعا، فوضع خطة تقدم ثان عبر نهر الأردن وكرر محاولته الأولى، وعلى الرغم من أن هذه الغارة انتهت أيضا بهزيمة تعبوية واضحة إلا أن تأثيرها السوقي كان موائيا إذ إن الأتراك احتفظوا منذ ذلك الوقت بتثبيت قوتهم شرقى نهر الأردن.

الهجوم العام (موقعة مجدو)

كانت القوات التركية منظمة فى ثلاثة جيوش، تركز الجيشان السابع والثامن منها غربى نهر الأردن، وتمركز شرقيه الجيش الرابع، وقد احتل الجيش الثامن نصف الجبهة من الساحل حتى قرية فرخة مسافة ٢٠ ميلا بقيادة جواد باشا خلف كرس فون كرسشتاين الألمانى، وكان مقره طولكرم، أما الجيش السابع فقد احتل نصف الجبهة الآخر لغاية وادى الأردن بقيادة مصطفى باشا كمال (أول رئيس للجمهورية التركية) ومقره فى نابلس، وعين المشيرفون سائدرس الألمانى قائدا عاما لمجموعة الجيوش التركية فى شباط عام ١٩١٨ وكان مقر قيادته فى مدينة الناصرة.

وضع النبي خطة الهجوم على غرار خطته في غزة وبئر السبع، ولكن بشكل معكوس، فهناك هاجم جناح الأتراك الأيسر مع إيهامهم بأن قصده هو الاندفاع بمحاذاة الساحل، أما هنا فكان يرغب في أن يخترق جناحهم الأيمن قرب الشاطئ مع إيهامهم بأنه يقصد مهاجمة عمان ودرعا أولاً، وقد اتخذت جميع التدابير الكفيلة بخداع الأتراك وأجريت في ساعات الظلام كافة التحركات من الشرق إلى الغرب، فاستدعيت القوات التي عسكرت طيلة فصل الصيف في وادي الأردن، وتعرضت للنيران والملاريا والحرارة الشديدة في سبيل خداع الأتراك، وحشدت بين أشجار البرتقال والزيتون في خيام منصوبة سلفاً حيث أبقت خيامها الأصلية منصوبة في وادي الأردن لإيهام الأتراك بأن الهجوم سيوجه نحو الشرق.

وبتاريخ ١٩ / ٩ / ١٩١٨ باشر الفيلق العشرون بالتحركات الأولية من جبال القدس استعداداً للموقعة الكبرى، وكانت الخطة العامة تقتضي منه أن يتقدم باتجاه نابلس على محورين فرعيين بينهما فجوة تحرسها قوة منفصلة، ويتحاشى سلوك الطريق العام، فاندفعت ميمنته بمجرد حلول الظلام عبر وادي السامية، وقامت بحركة التفاف واسعة خلف المواقع التركية الأمامية، وتمت العملية وفوجيء الأتراك مفاجأة تامة بفضل الترتيبات المحكمة، وفي هذه الأثناء بدأ الفيلق الحادي والعشرون اقتحامه على جبهة اتساعها عشرة أميال في القطاع الساحلي، بعد أن فتحت جميع المدافع نيرانها فجأة لمدة ١٥ دقيقة، وتم له اقتحام جميع التحصينات المحيطة بجلجولية وقليلية، واستولى على الطيرة بعد قتال عنيف، فتفهرت قوات الجيش الثامن ووصلت إلى محطة المسعودية في طريقها إلى طولكرم، وهناك فتك بها سلاح الجو

بِقَتَابِلِه ورشاشاته، فانكسر هذا الجيش دون أن يعلم ليமான فون ساندريس في حينه، فقد اندفع نحوه لواء من الفرق المتجهة إلى بيسان والعفولة للقبض عليه في الناصرة، ولكنه تمكن من الهرب في آخر لحظة، ونقل مقره إلى طبرية. استمرت القوات في تقدمها وتم كسر الجيش السابع أيضا قبل حلول مساء يوم ٢٠ / ٩ أي بعد مرور ٢٦ ساعة من بدء العمليات العسكرية.

الدروس المستفادة

سبق للقائد العام للقوات التركية في فلسطين الجنرال الألماني ليமான فون ساندرز، (الرئيس السابق للبعثة العسكرية الألمانية) أن أقام مقره الرئيسي في «الناصره». وكان تحت قيادته ثلاثة «جيوش» هي السابع والثامن والرابع، بعد أن استدعى قائد الجيش الرابع أحمد جمال باشا (السفاح) إلى العاصمة التركية، وكانت هذه الجيوش ضعيفة لا يكاد عدد أفراد كل منها يزيد عن أعداد فرقة واحدة. وكان الجيش الثامن تحت قيادة جمال باشا الصغير، والسابع ومقره نابلس - بقيادة مصطفى كمال باشا (أتاتورك فيما بعد).

وكان الجيش البريطاني متفوقا في عدد أفرادهِ، وتسليحهِ، على الجيش التركي الذي كان دونه عدداً وتجهيزاً، سيئ التغذية واللباس، ويحارب في بلاد معادية، في حين أن الجيش البريطاني كان - في ذلك الوقت - ولا يزال يتمتع بثقة سكان البلاد.

وكانت الجيوش التركية الثلاثة في فلسطين، غربى نهر الأردن وشرقيه تمونٌ بواسطة خط سكة حديد الحجاز الذى يسير من دمشق إلى مفرق في درعا، ثم يتفرع منه فرعان أحدهما يمد القوات في

القطاع الغربى، والآخر القوات الموجودة فى القسم الشرقى، وكان من المهم عسكريا واستراتيجيًا قطع هذه المواصلات قبل شن الهجوم البريطانى وقد عهد بهذه المهمة إلى الأمير فيصل، والجيش الشمالى، وكانت كتيبة سيارة مؤلفة من ٥ آلاف عربى قد خرجت فى اليومين السابقين ونسفت سكة الحديد إلى الشمال والجنوب والغرب فقطعت بذلك خطوط التموين التركية وخطوط التراجع، وبادرت الطائرات البريطانية القليلة المتوافرة إلى قصف قوات الجيش التركى ومراكز البرقيات والتلفونات ومفارق الطرق، وعلى حد تعبير المؤرخ العسكرى «ليدل هارت» كان انتصار النبى قد حققته أداتان جديدتان: «الطائرات والعرب».

ولما أخذ الجيش التركى الرابع يتراجع من السلط وعمان لم يستطع الإفادة من السكة الحديد، فاضطر رجاله أن يسيروا على أقدامهم، ويتركوا وراءهم أسلحتهم ومعداتهم، وكان النبى وانقا من الانتصار بدرجة أنه بعد شن الهجوم واجتياز الخطوط التركية بأربع وعشرين ساعة بادر إلى إرسال لورنس بالطائرة حاملاً رسالة جاء فيها:

«أبعث إلى سموكم تحياتى وأطيب تهانى بالإنجاز العظيم الذى حققته قواتكم الباسلة فى درعا، الذى كان له بنتيجة إرباك مواصلات العدو تأثير مهم فى نجاح عملياتنا وبفضل جهودكم المشتركة».

حرب ١٩٤٨ م

أ- قوات المقاومة

ظهرت طلائع المقاومة رسميًا من داخل فلسطين قبل شهور عدة من نهاية الانتداب البريطاني لمواجهة التخاضل الذى أبداه الجيش البريطاني وحلفاؤه تجاه المتنافسين المتكالبين على حقوق الشعوب ولا سيما الأمة العربية، ولم يسمح بدخول القوات النظامية العربية إلا فى منتصف ليلة ١٠ / ٥ / ١٩٤٨ م. لقد بدأ الشعب الفلسطينى فى أوائل العشرينات نضاله الجماهيرى بعد فترة وجيزة من إعلان وعد "بلفور" البريطانى بحبكة أمريكية راضخة ومتواطئة مع الصهيونية العالمية فى غفلة من الأمة العربية تحت الحكم العثمانى، ومرورًا باتفاقية سايكس بيكو. لقد صمد هذا الشعب الأعزل وهو يجابه بإمكاناته الضئيلة مؤتمرات الساسة الطامعين وطغيان المحتلين وبقيت قواته شاكية للسلاح تواجه التهويد والخونة إلى أن أعلن عن ثورته الكبرى فى عام ١٩٣٦ م وانهقد مؤتمر لندن وصدر الكتاب الأبيض فى عام ١٩٣٩ م، وقرار التقسيم على عام ١٩٤٧ م، وما تلاه من رد فعل الجامعة العربية، ثم دخلت فى حرب ١٩٤٨ م.

لقد أوجزنا فى الصفحات التالية مراحل هذه الحرب وما آلت إليه. وعلى الرغم من انتهاء القتال لم تستكن المقاومة بل انتظم مقاتلوها فى "جيش التحرير الفلسطينى" عندما وقع العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦ م، وازدادت فعاليتها ولم تقنع بدور ثانوى. فكانت أول من تحرك بعد كارثة ١٩٦٧ م، ورابطت فصائل منها على نهر الأردن غرب بلدة الكرامة ولم تتم السنة حتى وقعت معركة الكرامة الخالدة

التي ضحّت فيها بمئة شهيد ونيف، وورّوا مجتمعين في أرض المعركة قريبًا من النصب التذكاري للشهداء الأردنيين. لقد أمكن قهر العدو ماديًا ومعنويًا لأول مرة، وأجبر على ترك قتلاه المقيدين داخل كل نبابة مدمرة بفضل مشاركة وحدات الإسناد النظامية التابعة للجيش الأردني العظيم في الأغوار، وقد رابطت أيضًا كتائب كاملة من هذه القوات على قناة السويس - في أثناء العبور العظيم سنة ١٩٧٣م - جنبًا إلى جنب مع حماة العروبة وجند الإسلام وعلى رأسهم الجيش المصري المظفر (١). وقد ووري شهادتها ثرى مصر في أضرحة خاصة بهم في أرض المعركة بمحاذاة القناة تغمدهم الله جميعًا بوسع رحمته وأسكنهم فسيح جناته. "هذه أمتكم أمة واحدة" ومن واجب شعوبها أن تتخذ بعضها بعضًا في تنسيق ثابت ومحكم دون أن يمن أحدٌ على غيره أو يطالب بأي "اعتذار" (٢).

تألفت قوى المقاومة الفلسطينية والعربية والإسلامية - قبل تشكيل جيش التحرير الفلسطيني - من عناصر رئيسية ثلاثة هي:

قوة الجهاد المقدس

يرجع تأسيس نواة "الجهاد المقدس" إلى بداية ثورة فلسطين الكبرى المار ذكرها والتي امتدت ثلاث سنوات حتى عام ١٩٣٩م، وقد دل ذلك على وعي متنام لدى الشعب واستعداده الفطري لتحمل مزيد من المشاق وتصعيد النضال طوال أربع سنين عصبية ضحى فيها بثلاثة آلاف شهيد، ولم تخبُ جذوة هذه الثورة إلا في بداية الحرب العالمية

١- لقد حقق الجيش المصري انتصارين كبيرين قبل ذلك، الأول في رأس العش (يوليو ١٩٦٧)، والثاني في إغراق المدمرة إيلات (أكتوبر ١٩٦٧م).

٢- طالب "متحاور" في صباح ٢٧ / ٦ / ٩٧ بالاعتذار عن الخسائر في فلسطين.

الثانية بناءً على توصيات الأشقاء العرب المخدوعين بالوعد الجوفاء.

أعيد تنظيم القوة في سنة ١٩٤٧م، والتحق بها مقاتلون فلسطينيون وسرعان ما انضم إليهم المتطوعة العرب، ولقد نشطت جميع فصائلها في التصدي لعصابتى أرغون وشتيرن في أواخر عام ١٩٤٧م، وفي قطع طرق القوافل، وحصار القدس الجديدة الغربية من الشمال، والإسهام في سقوط مجموعة مستعمرات كفار عتسيون والحبيلة من الجنوب، وإجبار العدو على الهرب من مستعمرة النبي يعقوب (١) وكذلك مستعمرة عطاروت - التي وقعت قافلته في الفخ وتكبدت أحد عشر مقاتلاً من الهاغنة - بالإضافة إلى مستعمرة أخرى بجوار أريحا وتوالى نسب حى المونتفوري وشارع بن يهودا والوكالة اليهودية والبالستين بوسست وهاسوليل ومعمل السبيرتو، ومساعدة جيش الإنقاذ السوري في هجومه على مستعمرة حايم التي سبق ونجدها الجيش البريطاني بتاريخ ٢١ / ١ / ١٩٤٨م. وضحت القوة في هذه السنة فقط بثمانية آلاف شهيد، لقد استطاعت أن تقمع المتعاونين مع الأعداء وسماسة بيع الأرضى، وأن تتفد إجراءات تنظيمية تتعلق بالفصائل المحلية من أجل الدفاع عن سبع منطق عسكرية تضم المدن والقرى بإشراف اللجان القومية، تولت هذه اللجان أيضاً تصريف الشئون الإدارية وتحصيل الأموال المحدودة من الأهالى وشراء الأسلحة القديمة التي علفت بها رمال الصحراء الليبية، وكذلك الأحذية الجافة التي كانت تدمى الأقدام.

لقد بذلت قوة الجهاد المقدس كل ما تستطيع لتذليل الصعاب وتخطى

١- كنت قبل التحاقى بالجيش العربى الأردنى (من ١٩٤٩م إلى ١٩٧٠م) تابعاً لقوة الجهاد المقدس التي حاصرت هذه المستعمرة وأسقطتها بعد كفار عتسيون بفضل مساندة المدفعية الأردنية واضطر العدو أن يخليها متكبداً خسائر فاقت خسائرنا.

العقبات في ظروف استعمارية وتضليلية بالغة التعقيد تحت تأثير القوى الدولية والسيطرة المباشرة "لإمبراطورية" البريطانية طوال ثلاثين عامًا في فلسطين، حيث توجد القواعد والتحصينات ومعسكرات الحلفاء التي اكتظت بأكداس التجهيزات القتالية ومعدات الحرب العالمية الثانية، وآل معظمها إلى المستعمرات الصهيونية (تدعى الآن مستوطنات) طوعًا أو قسرًا أي تهديدًا وترغيبًا بكل خبث وخسة، هذا فضلًا عن الكميات المستوردة من تشيكوسلوفاكيا التي شملت الصفقة الأولى منها فقط ٥٠٠٠٠ رشاش هوشكس ، ٢٠٠ رشاش متوسط، ٢٤٥٠٠ بندقية موزر، ٥٤ مليون طلقة من ضمنها "الدمدم"، ٢٥ طائرة مسر شमित، ومئات أنصاف المزنجرات والسيارات المدرعة والهاونات والمدفعية والطائرات من أمريكا وأوروبا اللتين أغدقتا عليها كل هذه الأعتدة بسخاء ماهر لم يسبق له مثيل، وقد أدى ذلك إلى حماية العدو وتمكينه من إشغال مواقع منتخبة بمساعدة مصلحة المساحة وغيرها في "حكومة فلسطين" التابعة لبريطانيا. المفروض أن تكون "منتدبة" بتكليف من عصبة الأمم، لا محتلة. حصلت قوة الجهاد المقدس في سنة ١٩٤٨م على تمويل متواضع من الجامعة العربية وكانت تابعة للهيئة العربية العليا برئاسة سماحة مفتي فلسطين، وإمرة القائد العام عبدالقادر الحسيني (من مقر قيادته في بير زيت/عين سينيا)(١)، وزميل دربه عبد الحليم الجيلاني

١- كنت أحد المرابطين في هاتين البلدين ثم انتقلنا إلى قرية بيت عسير واسترحنا أسبوعين بين أهلها نتم بالخليب الطازج الذي تجلبه لنا ربات البيوت صباحًا ويرسلون لنا بالمناسف عصرًا. وكنا نشرف من جبالها على الطريق تل أبيب - القدس وبدأنا معارك بابا الواد الطافرة التي أدت إلى حصار القدس، ومهدت لاسترداد حارة اليهود فقط، ثم توجهنا إلى قالونيا. وعندما سقطت القسطل بجوارنا وهي تتحكم بمشارف القدس كان قائدنا العام عبدالقادر الحسيني في دمشق يطالب اللجنة العسكرية بالتمويل والتعزيز دون مجيب فعاد مسرعًا في يوم ٦/٤/١٩٤٨م ومعه ٨٠٠ جنيه فلسطيني من الحاج أمين شخصيًا، وليس ٨٠٠ -

(قائد منطقة جنوب القدس الذي سارع إلى نجدة مرة في معركة بنى نعيم بالخليل ١٩٣٦م ومرة في معركة القسطل سنة ١٩٤٨م وكان في الأولى جريحاً وفي الأخرى شهيداً باراً)،

وبهجت أبو غريبة (مسئول الدفاع عن القدس)، وحسن سلامة (قائد

- متطوع كما قيل. واسترد القسطل بمساعدة التجدات الشعبية التي هرعت من القدس والخليل والقرى، ولقى ربه شهيداً فدبت الفوضى وتجمهر المجاهدون لتشيعه وخلت منهم القسطل فعاد إليها العدو يساعده تل من السيارات المدرعة، ثم توجه العدو إلى قالونيا واستولى عليها بسهولة أيضاً في يوم ١١ / ٤ / ١٩٤٨م. وكان بها مستودع متفجرات جلبها متطوعة القوات الخفيفة التابعة للجامعة العربية واستعملنا قسماً منها في تدمير أطراف مستعمرة موتزا. للمقابلة لنا في وضوح النهار حيث كان يتردد عليها البريطانيون بدباباتهم ويطلقون القذائف باتجاهنا تملقاً للصهانية فنصب نيران ما يتوافر لدينا من أسلحة على الفتحات والمنافذ. استشهد حين انسحابنا من قالونيا متطوع مصري صغير السن مثني ظل يرافقني ولا سيما أنى من مواليد القاهرة، ولكنى - أعرف له عنواناً وإنما اسمه الأول "أقسم" ولطالما أوصيته أن يقتفى أثرى لأنه أصيب قبل ذلك بطلقة خدشت "النمرة" أثناء تقدمه منحياً مع أحد أبناء القرية الذي أصيب هو الآخر إصابة سطحية في أرنبة أنفه وأحرقت شاربيه الكثيفين وكنا نتندر بهذه الإصابات الجانبية العجيبة. إن السبب في علم ملازمة "أقسم" لى عبر مسالك جبلية خربت جيلًا كان شدة حماسه وكثرة إطلاق النار والحركة تغطية لجندى أول أردنى متقاعد كان مصاباً هو الآخر فى ساقه، ورغم عرجه استطاع أن يلحق بنا، ولكن عطف انسحاب أقسم ابتعد وسقطت عليه إحدى قنابل الهاون المنهمرة كالمنظر من الجبال المحيطة بالقسطل - رحمة - وتمنيت لو عرفت أهله فواسيتهم. أما نحن فسارعنا للالتحاق بالتجدات المتوجهة إلى معركة رامات راحيل جنوب القدس واقتحمنا أطرافها فى وضوح النهار أيضاً بسيارات مصفحة محلياً استولينا عليها من العدو وكنت ممتطياً إحداها وأصبت بشظية دلم استقرت فى لوحة الكتف دون أن تلحظها بمرضة لعوب غير مكترثة فى مستشفى الفرنساوى فى بيت لحم، و- أدر فى حينه عن هذه الشظية طوال عشرين عاماً، إلا حين تصويرى بالأشعة السينية من أجل العمل فى السعودية بعد التقاعد، وكان ذلك فى عيادة رئيس الجراحين سابقاً فى الجيش الأردنى (د.كارلوس) الذى أشار بترك الشظية على حالها طالما بقيت ثابتة فى مكانها. أما رواتبنا فكانت تصرف من الجامعة العربية. ولدى حل قوة الجهاد المقدس وقبل التحقنا بكتيته ١١ النضال (شمال) وكتيبة ١٢ جهاد (جنوب) التابعتين للجيش العربى الأردنى خصصوا لنا ثلاثة أشهر مكافأة دفعة واحدة لنا، ولكن أحد المسؤولين أخذها لنفسه فاكشفت ذلك وكنت الوحيد الذى حصل على راتب شهر منها وسلمته كالعادة إلى والدتى السيدة المصرية التى رافقتنا وتحملت شظف العيش وزرعت فىنا حب الوطن. مرودة مسامعنا: الفردوس المفقود، الحجاز بلد المقدسات، مصر أم الدنيا... إلخ.

منطقة يافا)، وإبراهيم أبو دية (صوري/بيت لحم) وغيرهم كثيرون. ولطالما حذر القادة في الميدان - فلسطينيون وعرب - من مغبة النقايس عن أداء الواجب من قبل الأشقاء ولو في مكاتب الإدارة وهذا أضعف الإيمان، والشح على "المقاومة" في ساحات القتال التي تبذل المال والرجال معًا. ولطالما أوصوهم بالاطلاع عن كُتب على الموقف الحربى العام وعدم التشدق - سواء في السهرات أو في الصحف - عن تحركات الجيوش النظامية فقط لأنها ستعيد اللاجئين إلى موطنهم والحق إلى نصابه عندما تحين ساعة الجد التي امتدت أيامًا وسنوات وأصبحت عقودًا من الزمان.

لقد تهكموا على المقاومة ولم يفقهوا أنه في عناصرها قوات غير نظامية مدربة تدريبًا خاصًا وتمتلك زمام المبادرة. وهي التي تستطيع أن تستعمل أى سلاح رادع، وأن تطبق مبدأ اضرب واهرب إذا تتطلب الموقف ذلك دون أن تترك أثرًا يقتفيه الجيش البريطانى. وقد ثبت لهم بعد قوات الآوان أن تلك الساعات والدقائق كانت عوامل حاسمة في توجيه المعركة وكسبها بأقل الخسائر في جانبنا وأفدحها في جانب العدو. ولا أبلغ من قولة عمرو بن العاص فاتح فلسطين الذى بدأ حديثه مع الأرطوبون: نطلب الموت فتوهب لنا الحياة (بقية الحديث مثبت في مؤلفاتى عن جند الإسلام في العصر النبوى ثم الراشدى). إن عدوا من النوع المادى الجشع يقيم الآن مجتمعات تتقن فنون التسول وتستمرىء اغتصاب حقوق الغير، ولكن لديه حساسية مفرطة إذا نزلت الخسائر في صفوفه، ولم يتحملها عنه مرتزقته والمتواطئون معه.

إنه يجزع أشد الجزع إذا تعرّض نسله للنقصان حين ممارسة السرقة ومواصلة العدوان، لا سيما إذا خاب في لعبة الأمم والعض على التواجد وانقلبت ضده الموازين ولم يبادر الضالعون معه إلى إنقاذه في الميدان وحمائته في المحافل الدولية. وهو لا يتوقع أن تتوقف عنه أكبر المساعدات العالمية وأضخم المعونات الدولية التي اعتاد أن يحصل عليها بوسائله الابتزازية في شكل هبات وتعويضات لم يسبق لها مثيل تارة بالترغيب وتارة بالوعيد في كل سنة وفي كل مناسبة يفتعلها.

جيش الإنقاذ / التحرير:

أنشئ هذا الجيش في معسكرات قطنا جنوب غرب دمشق بمبادرة من الجامعة العربية في أكتوبر ١٩٤٧م وبإمرة القائد الميداني فوزي القاوقجي(١)، وتشكل من فوج (كتيبة) اليرموك الأول ثم الثاني، وفوج أجنادين، وفوج حطين، وفوج الحسين والفوج اللبناني، وفوج جبل العرب والوحدة العراقية والوحدة السورية/ الحموية والوحدة الأردنية والمفرزة اليوغسلافية والمجموعتين الشركسية واليمانية بالإضافة إلى بطارية المدفعية. دخل هذا الجيش شمال فلسطين وقا تل سنة كاملة في وجه قوات عدة تابعة للأعداء تفوقه في الإمكانيات أضعافا مضاعفة، وقدم الكثير من الشهداء في معارك المزرعة والشجرة وترشيحا والجش.

وقعت عمليات ثلاث كبرى "باروش وديكل وجنين" قذف فيها العدو

١- تلقيت تدريبي في صفوف هذا الجيش، وألقى علينا هذا القائد العظيم محاضرة قومية. وقد سبق له أن هب لنجدة فلسطين في ثورتها.

بمعظم قواته إلى الشمال في خمسة ألوية كبيرة "الكسندروني - جولاني - كرملي - شيفع - عوديد" وكان يؤازرها الاستعمار، وتدعمها المستعمرات في الجليل كله و"الغاناع" من الفتيان والفتيات بدأت القتال من اليوم التاسع من يوليو حتى الثامن عشر منه، بعد نهاية الهدنة الأولى، أي في الأيام العشرة الأولى من الجولة الثانية من حرب ١٩٤٨م.

كانت عملية باروش تهدف إلى إزاحة خطر الجيش السوري النظامي الذي احتل مستعمرة "مشار هاردين" قرب بحيرة الحولة، من خلال عملية التفاف حول المستعمرة من الشمال والجنوب وصولاً إلى نقطة "الجمرك" على جسر طريق يعقوب لتطويق هذا الجيش وقطع الإمداد عنه من القنيطرة. وقد كلفت بهذه العملية كتائب من لوائي كرملي وعوديد، إلى جانب مفرزة هندسية لإقامة جسور على نهر الأردن. إلا أن الجيش السوري تصدى للعدو وأفشل خطته، وبقيت "مشار هاردين" بيد السوريين إلى أن حانت مفاوضات الهدنة.

أما قوات جيش الإنقاذ فكانت تشغل منطقة واسعة من قلب الجليل في الناصرة ولوبيا والشجرة إلى الحدود اللبنانية على استدارة قوس يقارب الستين كيلومتراً. وانتشر جزءٌ منها بأعداد قليلة بين مئة ومئتي رجل من كل قرية، وكان جسم القوة الرئيسي يحاول استعادة قرية "الشجرة" من العدو.

وفي عملية "نيكل" حاول العدو تقطيع هذا الجيش المتفرق فاحتل قرية "الكابري" شرق مستعمرة "نهاريا" ودخل "البروة" إلى الجنوب منها ثم "شفا عمرو". تحركت قواته على خطين متوازيين نحو الشرق

من نهاريا - الكابري إلى "ترشيحا" ومن عكا - البروة إلى "مجد الكروم" والرامة وانتهاء بصفد على أعلى جبال الجليل الشمالية مع ضغوط عسكرية متزايدة على الشجرة ولوبيا والناصره لتثبيت قوات القاوقجي ريثما يكتمل إغلاق الحدود في الشمال.

وتحركت قوات إضافية من "شفا عمرو" نحو الناصرة شرقاً يوم ١٤ / ٧ / ١٩٤٨م فمرت بقريتي "تهال والمجيدل" على حين زحفت قوات مدرعة أخرى من الشمال فاحتلت قرية "صفورية" المعروفة ببأسها. وحين إتمام الطوق حول الناصرة ليلة ١٦ / ٧ / ١٩٤٨م أصيب الأهليون بالهلع فهرب بعضهم عبر الجبال إلى الشرق. أما قوات جيش الإنقاذ فقد خشيت من إحكام الحصار إلى الشمال قرب الحدود اللبنانية فانسحبت في مسيرة مضنية على الأقدام لعدم توافر سيارات النقل، وقطعت ما يقرب من الثمانين كيلومتراً حتى وصلت منهكة إلى قرية "عيترون" في داخل الأراضي اللبنانية، وقد استشهد منها عدد من الضباط العراقيين والفلسطينيين واليمنيين والسوريين. واتجهت بعد إعادة التنظيم إلى سوريا ثم حلت في مايو ١٩٤٨م، وهو الشهر الذي حلت فيه أيضاً قوة الجهاد المقدس.

القوات الخفيفة / كتائب المتطوعة:

أبرقت جماعة الإخوان المسلمين لحكومة النجاشي طالبين السماح للمقاتلين المتطوعين بدخول فلسطين في مطلع سنة ١٩٤٨م بعد أن تلقوا التدريب التأسيسي في معسكر "هايك ستيب" قرب القاهرة، ولما قوبل طلبهم بالرفض قرروا إرسال مجموعة سرية عبر سيناء من متطوعي منطقة الدقهلية، ثم تبعها سريتان تشكلتا من متطوعي الإسماعيلية ومنطقة القناة. وفيما بعد سمحت السلطات للضباط

والوطنيين الراغبين فى الإسهام فى القتال مع المتطوعة أن يدخلوا فلسطين وهم محالون على التقاعد ضمن "قوات خفيفة" شكلتها الجامعة العربية فى ثلاث كتائب. وكان على رأسهم أحمد عبدالعزيز وكمال الدين حسين وحسن فهمى الذين صُرِّحَ لهم بأخذ الأسلحة والذخائر من مخازن الجيش المصرى.

ولقد دُوِّنَ ضباط الاتصال محمود الصباغ فى مذكراته المنشورة بصحيفة "المسلمون" ٣٠ / ٤ / ١٩٨٨م التفاصيل المعتقة بالتعبئة التى باشر بها الحاج أمين الحسينى وهو فى القاهرة لاجئاً سياسياً، والخدمات الوطنية التى تلقاها هو وابن أخيه عبد القادر الحسينى طوال فترة الاستعداد منذ ١٩٤٦م. وكان عبد القادر ومحمود جارين فى حلمية الزيتون. وذكر ضابط الاتصال كيف وصلت القوة إلى العريش قبل وصول الخيام، فأعارهم الجيش المصرى بعضاً منها، وعندما أعادوها أخبرهم العميد "محمد نجيب" بأن الأوتاد ناقصة رغم أنهم أحصوها، فجمعوا غيرها من الصحراء، وقد تعجبوا منه ذلك وهو الذى زارهم فى اليوم السابق وأهداهم برتقالاً يافاويّاً، وحكى لهم قصة الأعرابى.

نشبت باكورة المعارك فى ١٤ / ٤ / ١٩٤٨م حول مستعمرة دير البلح حيث تقدم المقاتلون عبر حقول الألغام ودمروا التحصينات الأرضية وجزءاً من البرج ورشقوا أفراد العدو بالقنابل اليدوية، حتى استغاثت المستعمرة بالجيش البريطانى الذى سارع بإرسال وحدة مدرعة يعلو أول دبابة منها علم أبيض وفضت الاشتباك.

وفى القاهرة أعدت دفعة ثالثة تعادل كتيبة وزودت بالسلاح والعتاد.

تحركت هذه الكتيبة من ميدان الأوبرا في شهر مارس ١٩٤٨م، واستقلت القطار إلى بورسعيد ثم الباخرة إلى بيروت ووصلت إلى معسكرات تدريب قطنا المار ذكرها والتي شيدها الجيش الفرنسي إبان الاحتلال في (الهضبة السورية/ جبال الشيخ في الجولان) حيث كانت تنتظرهم وحدة من الجيش السوري مخصصة لاستقبال المتطوعين من الأقطار العربية(١) والإسلامية. مكثت الكتيبة شهرًا مارست فيه فنون المشاة والمدفعية والمغاوير على أيدي مدربين سوريين وضباط يوغسلاف متمرسين من الحرب العالمية الثانية، ثم توجهت إلى جنوب فلسطين عبر مدينة عمان ووداي عربية والعقبة واختارت سيناء إلى غزة حيث نزلت بجوار القاعدة الجوية. وكانت ليلة طوارئ نظفوا فيها الأفراد أسلحتهم وكمنوا للعدو المتقدم نحوهم من المستعمرة في ١٨ سيارة مدرعة ظلًا منهم أنهم سيجهزون على هذه الكتيبة المجاهدة في ليلة وصولها. ولكن العدو تكبد خسائر كثيرة واندحر تاركًا بعض الآليات غنيمة، وجاء الأهليون يهتفون جند الإسلام على هذا الفوز.

ترأس عسكريون نظاميون هذه الكتائب، وهم الضباط المصريون المار ذكرهم الذين أحالوا أنفسهم على التقاعد وجلبوا معهم كل ما تسلموه من مخازن الجيش المصري. وعيّن "المقدّم" أحمد عبدالعزيز قائدًا للقوات الخفيفة، و"النقيب" عبدالمنعم عبدالرءوف لركان حرب، والملازم معروف الحضري مساعدًا للعمليات، والنقيب كمال الدين

١-ومن الفلبين أيضًا حيث شاهدت بين صفوفنا طالبًا فلبينيًا ناطقًا بالعربية وكان مهذبًا بطبعه نجماها وشديد البأس ضد الأعداء.

حسين قائدًا لمدفعية الهاوزر عيار ٣.٧ بوصة، وآخرون.

بدأت معركة دير البلح الثانية مع الضوء الأول واستمر أوارها حتى الظهر واستشهد ٤٣ متطوعًا وجرح معروف الخضرى على الأسلاك. وقد أمكن الانسحاب إلى الوادى وتقرر ضرب حصار حول التحصينات، فبدأت حرب المستعمرات بجنوب فلسطين. صدرت الأوامر بمحاولة الاستيلاء على مستعمرة كفار داروم (١) عندما رفعت خداعًا العلم الأبيض. عرض أحد الأعراب خدماته على قائد الفصيلة ولكنه اختفى فى مرحلة التقدم.

وفتحت النيران فجأة واستشهد وجرح عدد من المتطوعين نتيجة غدر هذا الأعرابى الذى أمكن العثور عليه واعترف أنه من سكان المستعمرة وتزوج صهيونية وله أولاد، وكان يكلف بجمع الأخبار يوميًا وعندما صحا ضميره، عرض أن يحرك قافلة مؤن وذخائر من المستعمرة لاصطيادها تكفيرًا عن خيانتة، فاتصل لاسلكيًا مع المستعمرة وأرسلت فعلاً هذه القافلة فأمطرتها الفصيلة بوابل من النيران وهرب الصهاينة تاركين القافلة غنيمة وبجانبها قتلاهم وجرحاهم. قرر قائد القوات الخفيفة "المقدم" أحمد عبدالعزيز أن تتحرك الكتائب شمالاً ضمن القوات الخفيفة التابعة للجامعة العربية بعد دخول الجيش المصرى فى ١٥ / ٥ / ١٩٤٨م، فأطلقت ستائر دخانية لتعمية كل مستعمرة تمر عليها، واستطاعت الوصول إلى العوجا. ثم عاودت سيرها إلى عسلوج وبئر السبع والظاهرية

١- ورد ذكر "الداروم" من أرض فلسطين فى توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته لجيش أسامة بن زيد. وقد أشرت إلى ذلك فى الجزء الأول من كتابى الأول "جند الإسلام" فى العصر النبوى.

ووصلت إلى مقر

قيادة القوات الخفيفة في بيت لحم، ومن هناك باشرت يوميًا ضرب ضواحي القدس المحتلة ولا سيما مستعمرة رامات راحيل وتل بيوت بمدافع الهاوزر. وعسكرت مفرزة بقيادة النقيب محمود عبده في مبنى المدرسة الثانوية بصور باهر المجاورة لمواقعنا (الجهاد المقدس) في جبل المكبر الذي سمي بهذا الاسم نسبة إلى الصحابي بلال عندما طلب منه جند الإسلام في حملة عمرو بن العاص أن يؤثن لهم وهو على هذا الجبل كي يذكّرهم بعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، لقد لحق برجال المقاومة في فلسطين متطوعون آخرون تابعون للإخوان المسلمين، قدموا من الأردن بقيادة عبد اللطيف أبو قورة، ومن سوريا بقيادة مصطفى السباعي، ومن العراق بزعامة الشيخ محمود الصواف، ومن تركيا بقيادة الجنرال رفعت أتلخان، ومن إيران فدائيان إسلامي بقيادة نواب صفوي، وكذلك من البلقان وأندونيسيا. أما من داخل فلسطين فكان للإخوان المسلمين أيضًا مجاهدون محليون منذ سنة ١٩٣٦م، وكانوا على اتصال وثيق بعز الدين القسام. ثم انضموا إلى قوات المقاومة الرسمية سنة ١٩٤٨م ومعهم بقية المتطوعة للعرب المقيمون في المدن مثل سكان حارة المغاربة في القدس من السودانيين وغيرهم. لقد قدّمت الشعوب عن طيب خاطر القوافل المتتابة من الشهداء الأبرار وما زالوا، تغدّمهم الله جميعًا بواسع رحمته وأسكنهم فسيح جناته.

ب- القوات النظامية

دخلت قوى مستقلة من عدة جيوش عربية إلى فلسطين في

اليوم المحدد لها (١٥ / ٥ / ١٩٤٨م)، على النحو التالي:

الجيش المصري

أعلن عن تشكيل قوة من الجيش المصري لدخول فلسطين بقرار مفاجيء، بعد طول تردد من قبل حكومة النقراشى. وعُين اللواء أحمد الماوى قائداً و"العقيد" محمد نجيب مساعداً، ثم حل اللواء أحمد فؤاد صادق محل الماوى وكانت نواة هذه القوة فى البداية مؤلفة من ثلاث كتائب من المشاة ووحدة مدرعة ولواء مدفعية، واجتازت الحدود إلى جنوب فلسطين على محورين. تقدم القسم الأول من العريش شمالاً بمحاذاة الساحل باتجاه مدينة يافا. وتوغل القسم الثانى من أبى عجيلة عبر النقب ووصل إلى الفالوجة ثم اتجهت طلائعة إلى الخليل وبيت لحم، ونشبت معارك شرسة وأمكنه الاستيلاء على مستعمرة "دير سنيد". وقاد "العميد" محمد نجيب عملية ناجحة أخرى احتل فيها مستعمرة نيتانيم وأسّر مئتين من مقاتليها.

أنشئت قاعدة بحرية على شاطئ العريش رست فيها كاسحتا ألغام وخمس سفن صغيرة وفرقاطة. وأقيمت جوية ربضت فيها ١٩ طائرة حربية تولت مهام المساندة الجوية. ورغم قلة عددها نفذت عمليات جريئة على خط المواجهة وفى العمق حتى تل أبيب، ولاسيما ما قام به النسر الأسطورة الطيار المقاتل "أبو زيد" الذى كان مجرد ظهوره فى مقدمة المقاتلات فوق ساحة المعركة يبعث على الاطمئنان والثقة بين الواحدات المرابطة على الأرض. وقد حدثنا الجند كيف كانت تفر مذعورة أمامه طائرات العدو فيلاحقها بمفرده ويحكم فيها إصاباته.

إنه على الرغم من اقتراب القوة المصرية من يافا، ووصول القوة

الأردنية إلى اللد والرملة وتجاوزها غربًا باتجاه تل أبيب، وإشراف القوة العراقية على البحر الأبيض المتوسط في مواقع شمالية لا تبعد سوى اثني عشر كيلومترًا عن الساحل، وانفتاح الطريق أمام كافة التعزيزات، وتشكيل حكومة عموم فلسطين في وجه خلافات علنية شديدة، تحولت فجأة الدول العربية وتقبلت هدنة الأسابيع الأربعة في الساعة السادسة صباح الجمعة الموافق ١١ / ٦ / ١٩٤٨م دون أن تحاول رفضها أو تعديل شروطها المجحفة أو تجاوزها كما كان يفعل العدو باستمرار.

وكان هذا القبول مثار دهشة الجميع ولا سيما الساسة من أمثال فارس الخوري وكذلك العسكريين قادة القوات الميدانية الذين كانوا يتوقعون بدلاً من ذلك أن تصل إليهم التعزيزات الرسمية والشعبية المتأهبة في أنحاء فلسطين والأقطار العربية والإسلامية والصديقة وذوى الضمائر الحية، والمباشرة بالتنسيق المطلوب. وهنا سارع الأعداء إلى لم شعثهم واستثمروا كل ما لاح لهم من فوز ووجدوا جهودهم، في حين بعثرت الجهود العربية ولم تتوحد اللهم إلا في مواقف سلبية تفرض عليهم حسبما تدور بهم الدوائر. لقد تعامل معنا الأعداء "بالجملة" طالما أدى ذلك إلى تحقيق مآربهم دفعة واحدة، ثم انفردوا بنا واحدًا تلو الآخر. وكانت الصحافة تُطالعنا كل يوم بالعبارة الشهيرة: (تراهم جمعًا وقلوبهم شتى).

أعيد في خلال هذه الهدنة الأولى تنظيم القوة المصرية، وقسمت جبهتها إلى قطاعات ومنطقة خطوط مواصلات وقاعدة أمامية. خُصص لقطاع أسدود - نيتسانيم اللوء الثانى المشاة ومدفعية ميدان،

ولقطاع المجدل اللواء الرابع المشاة ومدفعية ميدان وسريتين من قوة الجيش السعودي، ولقطاع عراق سويدان - الفولوجا - عراقه المنشية أربع كتائب من المشاة وسرية سودانية ومدفعية ميدان، ولقطاع بيت جبرين - الخليل - بيت لحم قوات الجامعة العربية الخفيفة بقيادة "المقدم" أحمد عبدالعزيز وقسم من التكية السادسة المشاة، ولقطاع غزة ومنطقة خطوط المواصلات كتيبة وثلاث سرايا من قوة الجيش السعودي ومدفعية ميدان.

إن استطالة خطوط المواصلات المصرية دون تعزيز ملموس في مواجهة حشود العدو المعززة بمرتزقة ومسرحين دخلوا فلسطين بكامل أسلحتهم وأعدتهم قد مكنه بفضل انعدام التنسيق بين الجيوش العربية، أن يسحب من جبهتيه الوسطى والشمالية ما شاء من قوات احتاجها لجس نبض أى من هذه القطاعات المنتشرة على مواقع متباعدة تفقر إلى العمق وتمثل نموذجًا مجسدًا للدفاع الخطى. لقد استطاع العدو توجيه هجماته المركزة وتطبيق نظرية طالما نادى بها النقيب البريطاني المتقاعد "هارت" في الثلاثينيات ولم يأبه بها قومه البريطانيون، وإنما اكتشف فعاليتها - لسخرية القدر - أعداؤهم الألمان الذين طبقوها بحزم فى حروبهم الخاطفة المشهورة باسم Blitzkrieg. وهى تعتمد على العمليات العسكرية غير المباشرة وراء الخطوط. وقد أعرب "هارت" عن حسرته على ما آلت إليه نظريته هذه فى الكثير من مؤلفاته فى أعقاب التقاف الألمان على خط ماجينو، وما تبع ذلك من اكتساح فرنسا واندحار البريطانيين أنفسهم حتى

دنكر ك وإلقائهم فى البحر. وعلى كل حال فهو القاتل بأن إسرائيل برج فى القلعة "Bastion" وقد خان بذلك ضميره.

لقد استهدفت المرحلة الأولى من تلك الهجمات المركزة الانفراد بالقوة المصرية دون غيرها ودق إسفين بين عراقه سويدان وبيت جبرين - بعد مهاجمة بيت لاهيا وبيت حاتون شمال غزة مباشرة - والالتفاف فى حركة كماشة واسعة جنوب للمؤخرة. واستهدفت المرحلة الثانية احتلال قطاع المجدل، ثم القيام بحركة التفاف أخرى فى المرحلة الثالثة لعزل غزة جنوبًا وتخريب السكة الحديدية والطريق الرئيسى والقواعد الإدارية. وقد بدأ تنفيذ هذا المخطط الكبير فى فجر يوم ١٦ / ١٠ / ١٩٤٨م فى أعقاب نجاح الضربة الجوية الكبرى فى مساء يوم ١٥ / ١٠ / ١٩٤٨م على القاعدة الجوية المصرية الوحيدة فى العريش، حيث كانت مطارات القناة بيد البريطانيين.

استطاع اللواء الثانى المصرى أن يكسر الطوق ويشق طريقا (١) عسكريًا موازيًا للساحل ويتصل بقاعدة غزة من المجدل وأسدود. وتولت الوحدات المرابطة فى قطاع الفالوجا مهام الدفاع عن عراق سويدان، وصدت بنجاح تام جميع الهجمات الشرسة سبع مرات متتالية. وتميزت الهجمة الأخيرة التى شنّها العدو ضدهم قبل غروب شمس ١٠ / ١٠ / ١٩٤٨م بكثرة الطيارين المرتزقة واشتداد غاراته

١- عرفنا مقدار الجهود العظيمة التى بذلت فى تعييد هذه الطرق وكيفية استعمال معدات تغطية الدروب الطينية وتثبيت الرمال المتحركة من الجنود المصريين الذين إلحقوا بنا فى بيت لحم ونحاضوا معنا معركة رامات راحيل.

الجوية ورمائياته الكثيفة فى أعظم حشد من المدافع الميدانية التى آلت إليه من معسكرات الحلفاء فى فلسطين، إلى جانب ما ذكرنا من أنواع الأسلحة التشكوسلافية الحديثة التى شحنها جواً رعايا أمريكيون وفقاً لمذكرة قدمتها الاستخبارات إلى ترومان ولكنه أغفلها عمداً.

صمد الأبطال المصريون ومعهم السودانيون والفلسطينيون متمسكين بمواقع دفاعاتهم الدائرية كاملة، وكبدوا الصهاينة خسائر فادحة. لقد شكلوا فى الفالوجا حامية قوية الشكيمة بقيادة العميد السيد طه (ولقبه البيه طه أو الضبع الأسود)، وأركان حربه (الرائد) جمال عبدالناصر بناءً على أمر صدر من الفريق فؤاد صادق للاحتفاظ بالمواقع حتى آخر طلقة وآخر رجل، وأفاده قائد الحامية بأن ما لديه من التموين (١) يكفى لخمسـة أيام فقط. ورغم ذلك استمر الدفاع مدة ١٢٠ يوماً حتى تسنى لهؤلاء الأبطال أن يخرجوا سالمين إلى غزة موفورى الكرامة بكامل أسلحتهم.

صحيح أن العدو ينس من احتلال هذا الجيب بالقوة العسكرية وطال الحصار الذى ضربه حول الفالوجة وتحول فى غضون ذلك إلى فك الحصار الذى ضربه الجيش المصرى بدوره على مستعمراته هو. ولكن القوى العربية الأخرى القادمة من الشمال لم تهب لنجدته، بل توقفت فى يت ساحور (٢) وبيت لحم ولم تلتحم مع قوة شقيقة أبية

١- كنا فى موقع قرية إذنا بالخليل نساهم فى إيصال الإمدادات لهذه الحامية وتعود الدواب تباعاً وهى عملة بمئات رشاشات الهاوشكس التشيكية المطورة التى خلفها العدو. وكان البطل (النقيب) معروف الحضرى يوجه بعضاً من هذه القوافل وقد أسر فى إحداها. وأذكر أنه كلفنى أن أجمع له فى كيس عسكرى لوزاً فاخراً من تحت مستعمرة رامات راحيل ففعلت وسر بها كثيراً. كما كمثرى ناضجة جداً لرفيقه القائد الفلسطينى عبدالحليم الجيلانى فى كوفيتى العسكرية.

٢- شاهدت معسكراتهم بجوار هذه القرية.

تناسوها فى الفالوجة، أو تعزز على الأقل القرى الصامدة حولها وتؤازر المدافعين عنها بغيرهم من المقاتلين العرب الذين بدأوا يتخلون عن مواقع استراتيجية الواحد تلو الآخر.

لقد أتيح للعدو مواصلة اختراقاته بسهولة فيما بين تبة الخيش والحليقات، وفصل المجدل ثم بيت جبريل عن الخليل ولم يبق فى الجنوب سوى قطاعات معزولة فى رفح، والعوجا، والعسلوج، وفى الشمال مناطق الخليل وبيت لحم. وفى مساء ٢٢ / ١٢ / ١٩٤٨م استهل العدو هجومه الشتوى بضربة جوية أخرى على مطار العريش حقق بها السيطرة الجوية ووجه اندفاعاً ثانوياً مخادعاً إلى الشمال من رفح (معركة التبة ٨٦) لم يلحظ فى حينه أن هجومه الرئيسى كان عبارة عن حركة تطويق واسعة من العسلوج وحتى العوجة على طريق بئر السبع جنوب الحدود المصرية حيث نشب قتال عنيف مع الكتيبة الخامسة المعزولة. نقلت قوات العدو الخاصة عمليات قطع الواصلات البرية والحديدية فيما بين غزة وبئر العبد على مسافة ٨٠ كم من قناة السويس فى ٤٨ موضعاً متفرقاً ثم نقلت المعركة عبر سيناء باتجاه أبى عجيلة على المحور الأوسط.

لدى اجتياز دبابات العدو الحدود المصرية، تحرّج الموقف وتوصل اللواء فؤاد صادق إلى استنتاج سليم تأكد فيه أن قوات العدو بدورها وصلت إلى قدر من الإنهاك يفوق ما واجهته القوة المصرية. فبدأت قيادته تعمل على استعادة التوازن لدرء هذا الخطر بكل حزم بعد زوال تأثير المفاجأة. زوّدت قاعدة السويس الجوية بمقاتلات حديثة واستعادت تفوقها الجوى ودحرت الرتل المدرع المتجه إلى أبى

عجيلة، وصُدَّت القوات المهاجمة لقطاع غزة - رفح. اضطرت بريطانيا بموجب معاهدة ١٩٣٦م أن توعز بانسحاب قوات العدو، فعادت وراء الحدود في مساء ٣١ / ١٢ / ١٩٤٨م.

ونتيجة لهذه العوامل العسكرية والسياسية لم يعمد العدو إلى احتلال أبى عجيلة وإنما هاجم قطاع رفح على الحدود المصرية الفلسطينية بخمسة ألوية مقاتلة دفعة واحدة. وسبق ذلك قصفاً جوى مركز فى ٤٢٣ طلعة (٢٢٦ طنًا من القنابل. لقد تبولت المواقع عدة مرات وصمد الجيش المصرى فى تعاون وثيق بين قواته البرية والجوية حتى حلول الهدنة الثانية بتاريخ ١٧ / ١ / ١٩٤٩م.

الجيش السعودى:

كان الجيش السعودى فى طور التكوين والتنظيم بإمرة الأمير منصور بن عبدالعزيز وزير الدفاع. وقد خصص عدة وحدات لدخول فلسطين مؤلفة من ١٥٠٠ مقاتل بقيادة العقيد عبد الله الكردى والضباط إبراهيم الطاسان ورشيد البلاع وتركى الرشد وأمين شاكى وعبدالهادى محمود والدكتور أحمد شلبى.

تحركت هذه القوات من مطار جدة إلى مطار القاهرة، ونقلت معداتها بحرًا إلى السويس ثم اتجهت إلى سيناء وخاضت فيها معارك منفردة ومشاركة مع قوة الجيش المصرى فى أسدود ونيتسانيم وبيت عفة وببيرون إسحاق. وقدمت من الشهداء ٤٣ جنديًا وضابط صف بالإضافة إلى الضباط: عبدالرحمن الشاهر وعبدالله الطاسان وأحمد الناصر. وحاز عدة أفراد من القوة على أوسمة الشجاعة من القيادة

العليا المصرية تقديرًا لرباطة جأشهم ودفاعهم المجيد، جنبًا إلى جنب مع وحدات مصرية وسودانية في معارك عراق سويدان، وإعاقتهم لتقدم العدو وتمسكهم بمواقع الحليقات طوال الفترة المحددة وفقًا للخطة المرسومة التي أملتھا الظروف الميدانية.

الجيش الأردن:

في مساء ١٤ / ٥ / ١٩٤٨م تحرك جسم الفرقة الأولى المشكلة حديثًا، وانتشرت ألويتها (١) المشاة في منطقة القدس وقطاع رام الله بقيادة "أستون"، وفي منطقة نابلس بقيادة "غولدي"، ثم عاد اللواء المتمركز في منطقة نابلس إلى منطقة القدس عندما حلت محله قوة عراقية.

تمركز اللواء الثالث في شرق مدينة القدس وشمالها واتجهت سرية من الكتيبة الرابعة نحو موقع "باب الواد" إلى جانب "الجهاد المقدس" ومناضلي (٢) هارون بن جازي وعشيرة الحويطات المرابطين بالمضيق لقطع إمدادات العدو. تحولت المناوشات إلى قتال منظم

وانتقلت بقية سرايا الكتيبة الرابعة ثم الكتيبة الثانية لمحاصرة العدو غرب القدس بالقرب من باب الواد المرابط حوله رجال "المقاومة". نفذت الإمدادات لدى السكان الصهانية واستعدوا للاستسلام فتقاعس القادة البريطانيون وحالوا دون تقدم الجنود الأردنيين في الوقت

١- كان يطلق عليها حاميات، حيث رابط عدد منها في فلسطين مع الجيش البريطاني إبان الحرب العالمية الثانية وهي تعد الأكثر اطلاعًا على المعلومات والتضاريس والمواقع.

٢- يطلق بدو شرق الأردن تسمية "مناضلية" على المحاهدين في فلسطين الذين يقدرونهم تضحياتهم العظيمة.

المناسب بحجة أن القدس ستدوّل ولا حاجة للقتال فيها. ولكن عندما وصل المدد إلى القدس الجديدة سارع العدو إلى احتلال حي الشيخ جراح واتصل بالجامعة العبرية ومستشفى هداسا اللتين لم تكونا للتعليم أو العلاج، بل قلعتان كبيرتان على أهبة الاستعداد. حاول العدو إسقاط القدس القديمة انطلاقاً من حارة اليهود فيها فاستغاث الأهليون بالجيش الأردني وبالمملك عبدالله الذي فقد هو الآخر الأمل وأصدر إنذاره المعروف إما أن يدخل الجيش القدس أو أذهب بنفسى لقيادته فى فلسطين.

وعلى الأثر صدر الأمر إلى (المقدم) عبدالله التل بدخول أسوار المدينة القديمة مع سرية واحدة مبدئياً ثم تتبعها سرية أخرى وهكذا. صدر أمر ثان بتشكيل قوة من سريتين تابعتين للواء الرابع مع أسلحة مساندة لتحرير حي الشيخ جراح بإمرة قائد الكتيبة السادسة المقدم "سليد" البريطانى (من اللواء الثالث) الذى أصيب فتولى قيادة المعركة (الملازم) على أبو نوار لأنه من ضباط المشاة ثم وصل مكانه (النقيب) صادق الشرع ومن بعده (المقدم) عبدالحليم الساكت، وتم الاستيلاء على حي الشيخ جراح ومنطقة مركز الشرطة. أرسلت قيادة الفرقة الأولى إلى باب العمود وحدة من سيارات مدرعة بإمرة ضابط بريطانى التحق لتوه بالجيش الأردنى من قوة حدود الأردن المنحلة وأصيب هو الآخر. أنجزت هذه الوحدة مهمة إخراس نيران القوة المعادية التى صعدت على كنيسة النوتردام الشاهقة الارتفاع والمبنية من الصخر الصلد الكبير الحجم فى موقع مشرف على القدس القديمة، وأخذت توجه رمايتها الكثيفة على الكتيبة السادسة من فوق الأسوار كى تعوق إقامة تحصيناتها. ولكن عندما أبطلت فعالية هذه الرماية،

أمكن إتمام التحصينات، واستمرت المعركة الرئيسية من داخل الأسوار.

تولى المقدم عبدالله التل تنسيق العمليات الحربية فيما بين الكتيبة والمناضلين والمتطوعة، ثم مع مجموعات المقاتلين الفلسطينيين المرابطين جنوب القدس، وكذلك مع القوات المصرية ومن ضمنها السرية الليبية. وقد كسب بكياسته ودبلوماسيته احترام الجميع وودّ الأهلين من مسلمين وعرب وأرمن وسريان في مختلف أحياء القدس القديمة. وعندما صدر الأمر الثالث بالهجوم على حي مُشيرم، استعجل ضباط الكتيبة الثالثة تنفيذ المهمة خشية إغاثها مأخوذون بالحماس، ولم يفكروا مليًا بالخطّة التي وضعها قائد اللواء غولدى وأركانها البريطانيون الذين حددوا محاور جبهوية بعد الظهر حين تنعكس أشعة الشمس - أكثرهم من بنى صخر والحويطات ومن السعوديين والسوريين - استطاعت سرية الملازم غازى الحربى (من قبيلة حرب) أن تفتح "قلعة نوتردام" وتطرد أفراد العدو من الدور الأرضى وتقاتل من تبقى منهم فى الأدوار العليا والجرسيات. وعندما حل الظلام طلب الملازم غازى الحربى (١) التعزيز والتزويد فحرّمته ذلك قيادة اللواء (بريطانية) وأجبر على الانسحاب. لقد ضاع على العرب والمسلمين هذا الموقع المهم الذى يشرف على عدة أحياء صهيونية مذعورة كانت على وشك التسليم. ويعود السبب الرئيسى فى ضياع هذه الفرصة إلى الامتناع عن تعويض النقص بسرية أخرى، وعدم

١- نقل على الأثر هو سرّيته إلى شمال الجبهة الرديّة. واكتشف وهو فى طريقه إلى هناك جنودًا تحفر خنادقًا وأعلمه القرويون أنهم من الأعداء فأبادهم. ولم يمض أسبوع حتى نقل مسافة أبعد فى شرق الأردن فاستقال.

- السماح للكتيبة السادسة المأهبة للنزال بأن تشن هجومًا جانبيًا من قمم جبل المكبر للإخلال بنظام العدو الدفاعي في القدس بأسرها. ولقد ذكر الضابط الأردني علي أبو نوار أن موسى دايان تساءل أمامه في إحدى جلسات لجنة الهدنة في سنة ١٩٤٩م قائلاً: ما الذي منعكم من شن هجوم ثان في مشيرم؟ لو فعلتم ذلك لكانت المدينة كلها لكم، حيث كنا ننتظر نهاية المعركة في اليوم التالي.

كانت كتيبتان من اللواء الثالث منتشرتين لتوهما فوق جبال باب الواد المسيطرة على المضيق المؤدى إلى القدس الجديدة وفي السهول المواجهة لعمواس والطررون وحتى مستعمرة سوين جنوبًا. واتصلوا بنا نحن رجال الجهاد المقدس، كما اتصلوا برجال النجديات القادمين من المدن والقرى المجاورة. في أعقاب النتيجة التي آلت إليها معركة مشيرم، بات في مقدور العدو توجيه هجمات متكررة في تلك المنطقة وكانت تصده الكتيبة الرابعة (الرابعة) في كل مرة مكبدة لياه خسائر بالآلاف.

وكانت ثرى أرتاله في الصباح الباكر متقهقرة جنوبًا تجر قتلاها وقد أعيها الإجهاد. ولطالما طالب كلٌّ من "العقيد" حابس المجالي و"الرائد" محمود الروسان أن يُسمح للكتيبة الرابعة بمطاردة قلوب العدو ولكن قائد اللواء (الجنرال اشتن) رفض كل هذه الطلبات بحجة أن ذلك يؤدي إلى تبديد الجهد والزج باحتياط اللواء! وذات مرة صمم محمد المعاينة قائد وحدة المدفعية العربي أن يخالف الأوامر الجائرة، ووجه الرماية نحو أرتال العدو المنسحب ثم قصف المناطق الحرجية جنوب القدس وشمال قطاع اللواء الثالث، فقلل هو الآخر إلى عمّان

ولم يُسند إليه أى عمل. لقد عزّ على القائد البريطانى (١) للجيش العربى الأردنى (Legion Arab) أن يدع قوات الصهاينة تضعف وتستسلم، بل أخذ يضخم ويهول من شأنها لدى الأهلىن أمامنا. ولم يكن لدى الفلسطينىين - وحتى القوات النظامية فى بداية الحرب - أية أجهزة استخبارية فعالة تقيّم المعلومات المتوفرة وتحلل الإحصاءات المتعلقة بالعدو والتشكيلات والأسلحة، وكذلك كميات وأنواع وموارد المساعدات العسكرية التى حصل ويحصل عليها العدو، وهذا يُعد من مواطن الضعف الكبرى لدى القوات العربية عموماً.

وعلى الرغم من ذلك اشدت استبسال القوات النظامية وزملائهم المجاهدين/ المناضلىن، وصمدوا فى مواقعهم، ثم تقدمت الكتيبة الأولى غرباً وطربت العدو من قرية النبى صمويل وموقع الرادار المرتفعين. وهنا بذل الضباط البريطانىون محاولات خفية لتخفيف الضغط عن قوات العدو المحاصرة فى ضواحي القدس الجديدة. لقد عمد هؤلاء الضباط إلى تشتيت زخم التقدم الذى أحرزته هذه الكتيبة باتجاه "المستعمرات الخمس" والقسطل، وحالوا دون سقوط القدس الجديدة، مما أعاق توجيه الكتيبة شمالاً إلى صرْفند وبقا للاتصال بالقوى العربية الأخرى التى كنات بانتظارها.

وعندما تيقن الأعداء من بقاء القدس الجديدة فى أيديهم وأصبح

١- منصبه الرسمى رئيس أركان، وهو الفريق كلوب باشا (ولقبه أبو حنك لدى البادية لأن حنكه أصيب بطلقة نارية أثناء تحوله فى الصحراء). وكان يزورنا ويشرح على السبورة مبررات واهنة للانسحاب من اللد والرملة. لقد أعرب عن مودته تجاه العرب فى مؤلفاته التى ذكر فى إحداها: (Arabs are loveable) ولكنه كان مكلفاً بتنفيذ سياسة بلده أولاً.

بإمكانهم حشد ثلاثة آلاف مقاتل، وشنوا هجوماً واسعاً على الكتيبة الرابعة فى باب الواد فتصدت لهم فى واحدة من أشرس المعارك فى فلسطين حتى ذلك التاريخ. وحقق قادة الفئات الأمامية مبدأ السيطرة على توقيت فتح النيران حتى مسافة مئة متر، ثم أطلقوا كافة أنواع الأسلحة المتوفرة دفعة واحدة وفتكوا بالمعتدين موجة فى أثر موجة عبر الأسلاك، ثم أجهز عليهم جند الإسلام المشاة بحراب البنادق، وأحصى فى الصباح ثمانمائة هوية لقتلى العدو مع أسلحتهم الفردية. لم يسمح القائد البريطانى اللواء بمطاردة فلول العدو ولو برماية المدفعية بحجة محدودية القذائف، فأقلت ما يزيد عن ألفى فرد آخرين وأعادوا شن هجمات جديدة. ووجَّهت إحدى هذه الهجمات إلى دير اللطرون وأمكن صدها، ثم وجهت هجمة أخرى تعززها ست دبابات - ظهرت لأول مرة - ضد مركز شرطة اللطرون وبجانبها أربع ناقلات جنود مدرعة مزودة بقاذفات لهب. فدمر الملازم عبدالمجيد المعاينة ثلاث دبابات منها بقذائف المدافع المضادة واستشهد. ثم تقدم أفراد سرية من كتيبة المشاة الثانية - وعلى رأسهم الجندى الحجازى فارس سلطان - واقتربوا من بقية الدبابات بسرعة فائقة ودمروا آخر دبابة على مسافة عشرة أمتار بقنابل الإنيرجا التى حشوها فى الحاضنات المركبة على فوهات بنادقهم ودمروا الناقلات الأربع أيضاً.

اضطر العدو لدى انهزامه فى منطقة اللطرون أن يشق طريقاً وعرة عبر الجبال جنوباً غرب القدس وأطلقوا عليها طريق بورما. وفى هذه الأثناء كلفت قيادة الفرقة الملازم "برومج" مع فئتين من السيارات المدرعة وفئة من المشاة بأعمال الدورية حول مستعمرة بيت شيمش وضواحي اللد والرملة الشرقية، وعينت "الملازم" نايف

الحديد مساعدًا له.

وعندما تصدت لهم المستعمرة اشتبكوا معها فى معركة شرسة وتمكنوا من أسر عدد من المجندين والمجنّدات أرسلوهم جميعًا إلى شرق الأردن. وعلمنا فيما بعد أن قائد اللواء الثالث استدعى ابن جلدته الملازم "برومج" وهدده بالمحاكمة ثم أرجعه إلى بريطانيا(١)، وأصدر أمرًا بانسحاب الفئات الثلاث. وقد أوعز هذا القائد للسرية الخامسة المشاة فى يوم ٩ / ٦ / ١٩٤٨م بالتمركز فى مدينتى اللد والرملة بدون إسناد ثم صدر الأمر بانسحابها هى الأخرى.

وفى القدس القديمة، كلف قائد الكتيبة السادسة المقدم عبدالله التل سرية بقيادة (النقيب) محمود موسى باسترداد الحى اليهودى، وكان ذلك بمعاونة مفرزة التدمير الفلسطينية، ومساندة مقاتلى قوة الجهاد المقدس بقيادة خالد الحسينى وجنود الإنقاذ بقيادة عبدالله فاضل فى داخل المدينة القديمة، ومرابطة القوات الخفيفة التابعة للجامعة العربية بقيادة المقدم عبدالعزيز، وقد أنجزوا المهمة على خير وجه فى ضحى يوم ٢٨ / ٥ / ١٩٤٨ وأسروا الحامية الصهيونية بأكملها. لقد استطاع جند الإسلام وهم متحدون أن يطهروا مدينتهم المقدسة وضاحية المصراة وحى الشيخ جراح.

لقد بذل الجيش وفئات المناضلين والمجاهدين تضحيات كبيرة، ولكن الخسائر فى صفوف العدو كانت بالآلاف لأول مرة، على الرغم

١ - صعد العدو لدى تكبده هذه الخسائر فى الشمال. مثلما صعد فى معارك "جيب" الفالوجة فى الجنوب.

من الإمكانيات الدولية الضخمة المعروفة التي انهالت عليهم والمساندة التقنية الحديثة التي قدمتها لهم مجاناً أعتى آلة حربية عالمية ظلمًا وعدوانًا على السكان المدنيين دون وازع من ضمير.

الجيش العراقي:

وصلت طلائع من الجيش العراقي براً في ليلة ٢٨-٢٩ / ٤ / ١٩٤٨م، وعسكرت في الأغوار الشمالية قبالة جسر المجامع المفضى إلى بيسان على مقربة من منطقة عمليات الجيش السوري في قطاع "سمح - طبريا".

وكان قوام هذه القوة ثلاثة آلاف جندي وضابط، عُززت فيما بعد باللواء الأول الذي وصل إلى مدينة "المفرق" ليلة ١٤ / ٥ / ١٩٤٨م بقيادة العقيد الركن نجيب الربيعي، ثم وصل الفوج الثاني من اللواء الخامس بقيادة المقدم عمر على، وعسكر في نابلس وطولكرم وقلقيلية، ولحق به فوج آخر من اللواء الثاني بقيادة "شمون الآشوري".

أما القوات الشمالية التي كانت مكلفة بالتنسيق مع الجيش السوري - حسب الخطة - لاختراق "خط إيدن" الحصين بين بيسان وطبريا فكان تقدمها نحو جسر المجامع للعبور إلى بيسان وكوكب الهوا في أعلى نقطة من الجبال الشرقية التي تتحكم جغرافياً بمناطق الأغوار الشمالية، ومرج ابن عامر جنوباً، وحيفا غرباً على شاطئ البحر. وتولى قيادتها العقيد الركن عارف يساعده كل من المقدم نوح عبدالله والمقدم طارق سعيد فهمي، والرئيس سعيد القریشي. وقد تحولت هذه القوات عن مهمتها الأصلية على مسيرة الجيش السوري، فاتجهت جنوباً نحو جنين ونابلس وقلقيلية، وخاضت معركتها المشرفة في

جنين. وكان يراود ضباطها حلم المعركة الحاسمة في "تتانيا" التي لا تبعد عن قلقيلية أكثر من (١٥) كيلومتراً، وليس بينهما إلا سهل كراحة الكف حتى شاطئ البحر، ولو تمت هذه العملية لانشطرت فلسطين إلى قسمين، وانحصر اليهود في جزيرتين حيفا والجليل شمالاً، وتل أبيب جنوباً.

قدمت قوات جوية عراقية من مطار المفرق إسناداً فعالاً للوحدات، ولا سيما في معركة جنين، وكانت مؤلفة من ٢٤ قاذفة قنابل و٣ طائرات من طراز "جلاديتور" وبضع مقاتلات من طراز "قيورى". وتولى رئاسة أركان القوات العراقية المحاربة في فلسطين كل من اللواء نور الدين محمود، والزعيم طاهر الزبيدى واللواء مصطفى راغب ثم اللواء نور الدين محمود مرة ثانية.

وعندما اشتدت الانتقادات في مصر ضد العراق لعدم قيامه بنجدة القوة المصرية التي تعرضت لهجوم شامل شنه العدو بتاريخ ١٥/١٠/١٩٤٨م، أرسلت القوة العراقية بضع وحداتها المتمركزة في وسط فلسطين إلى الجنوب ولكنها أوقفت في بيت لحم وطل انتظارها في معسكر ضريبوه بالقرب منا ولم يسمح لها بالتقدم إلى الفالوجة لفك الحصار عن حاميتها بقيادة العقيد سيد طه المار ذكره.

ولن ننسى مدينة جنين فضل الجنود العراقيين في الدفاع عنها. لقد قدموا خمسة وسبعين شهيداً، وكبدوا العدو ١٢٤١ إصابة، وعاونوا القوات الفلسطينية المحلية على استعادة جنين. إنها المدينة الوحيدة التي احتلها الصهاينة وطردوا منها في حينه بقوة السلاح. وهي المدينة التي نزلها صلاح الدين وبات فيها ليلة ٨ شوال ٥٨٨هـ، ثم

واصل مسيرته الجهادية شمالاً نحو مدينة بيسان.

الجيش السوري واللبناني:

كان الجيش السوري هو الآخر في بداية تأسيسه بعد سنة واحدة من الاستقلال عن فرنسا في ١٧ / ٤ / ١٩٤٧م. وتقرر دخوله في الحرب في عهد وزارة جميل مردم، رغم معارضة رئيس أركانه اللواء عبدالله عطفه الذي كان يرى أن هذا الجيش ليس مؤهلاً لحرب نظامية، وأنه من المفضل إرساله كمتطوعين مدعمين لخوض "حرب عصابات" ضد العدو. وقد تنحى عطفه عن قيادة الأركان ليخلفه الزعيم حسنى الزعيم.

وكان هذا الجيش مؤلفاً من ثلاثة ألوية يقودها كل من العقيد عبدالوهاب الحكيم والعقيد محمد جميل البرهاني والعقيد حسنى الزعيم. وكان تعدادهم يقارب ثمانية آلاف جندي وضابط منهم (٥٠٠) جندي وضابط التحقوا بجيش الإنقاذ بإمرة (المقدم) أديب الشيشكلي، أما عتاده الثقيل فكان (٣٦) مدرعة بريطانية من نوع "مورمون" و(١٠) دبابات فرنسية "رينو" و(٢٤) مدفعاً من عيارات مختلفة. احتل هذا الجيش مستعمرة مشمار هايردن.

شارك الجيش اللبناني في هذه الحرب بستة أفواج من المشاة والمدفعية إلى جانب سرية من الخيالة ومفرزة طبية ومفرزة هندسية. وكان يتولى رئاسة الوزارة "رياض الصلح" الذي أسند وزارة الدفاع للأمير "مجيد أرسلان"، على حين تولى قيادة الأركان اللواء فؤاد شهاب. أما العمليات العسكرية فكانت بقيادة المقدم جميل الحسامي.

وقد تميز هذا الجيش بتوفر أسلحته التي كان يجلبها التجار اللبنانيون البارعون، وأعار القوات السورية بعضًا من أسلحته وذخائره. خاض هذا الجيش معركته الشهيرة في المالكية وقُدس.

الاستنتاج والدروس المستفادة

صدر في سنة ١٩١٧ وعدّ من "بلفور" وهو وزير خارجية بريطاني أعطى أرضًا لا يملكها لمن لا يستحقها (١). تولت حكومة "الانتداب" على مدى ثلاثين عامًا إقامة معسكرات تدريب وإنشاء مواقع حربية للصهاينة عبر فلسطين، وكلفت الجيش البريطاني وحلفاءها بالتصدي للشعب الفلسطيني، وجردت عناصر المقاومة الفلسطينية والعربية من وسائل المقاومة والدفاع. ونفذت أحكامًا جائرة بحق كل من تقبض عليه يحمل سلاحًا فريدًا أو حتى رصاصة فارغة. فأعادت إلى الأذهان ذكريات أليمة ارتبطت باسم جمال السفاح والطورانية الشائنة، في حين استكانت صاغرة للصهاينة الذين كانوا يخطفون ضباطًا نظاميين من الجيش البريطاني نفسه نهارًا جهارًا ويعدمونهم في شوارع تل أبيب بإيعاز من مناحيم بيغن إرهابي منظمة شتيرن إذا حدث توان في تنفيذ مراحل المؤامرة. وقد اغتالوا الوسيط الدولي الكونت برنادوت السويدي بإيعاز من إسحاق شامير.

١- بل ويقرر الكونغرس الأمريكي في مايو ١٩٩٧ م جعل القدس الكبرى للصهاينة وكأنها منطقة واشنطن الكبرى، والأجدر به أن ينصف شعوب الأمريكتين الأصليين الذين اقتلعهم من أوطانهم قرصان البحار الفارين من أوربا؟ أما فلسطين فلديها شعب حي له وطن كامل عبر آلا السنين، أثار عليه اليهود الفارين من فرعون وأقاموا في جزء من فلسطين دولة لمدة ٧٠ عامًا، ونحن لا يعنينا "قرار" أو "وعد" أو "أرض موعودة" إفكًا، مما يؤدي إلى اقتلاع سكان آمنين وتقتيلهم وسرقة مؤنهم السنوية وممتلكاتهم التي لا تقدر بثمن.

لقد ذكرنا كيف نبّه قادة المقاومة إلى اشتداد الخطر المحدق بعروبة فلسطين، وكيف نركز فكر سماحة المفتى الأكبر الحاج أمين الحسينى فى العمل على تسليح جموع الشعب المتأهبة لحماية الوطن وأرض المسلمين وتحرير المواقع التى اغتصبوها بمساعدة المؤسسات العالمية وموظفى المساحة البريطانيين فى عمق الجبال والأغوار. أصدرت اللجنة العسكرية العليا التى اجتمعت فى مصيف عاليه فى سنة ١٩٤٧م خطة شاملة لتنفيذها من قبل جميع القادرين على حمل السلاح الفلسطينى. وممن يحتاج إليه من المتطوعة، وتحت على تحصين المواقع بالقدر المماثل لتحصين العدو على وجه السرعة مهما بلغت التكاليف. وارتأى رؤساء الأركان فى حينه بقاء الجيوش العربية على الحدود دون اجتيازها. أيد ذلك السياسى المخضرم/ فارس الخورى فى أعقاب مداولاته المطولة فى هيئة الأمم، وردد عبارته الشهيرة: "لا يحرث الأرض إلا عجولها".

وقد أوصى العاهل السعودى الملك سعود، تغمده الله بواسع رحمته، بخطة مماثلة تقضى بأن يتكون للدفاع عن فلسطين - عقب انتهاء الانتداب مباشرة - قوى فدائية شعبية ، تدعمها الحكومات والمنظمات العربية. وتواظب على إمدادها حتى تحقق أغراضها، فإذا نجحت فى الحفاظ على عروبة فلسطين وإفشال مشروع العدو فنور على نور، وإلا وأصلت قوى المقاومة عملياتها دون هوادة من أجل تحقيق النصر قبل فوات الأوان.

وعلى الرغم من حكمة هذه القرارات التى أيدت بعضها بعضًا، دخلت وحدات الجيوش النظامية الحرب ولكن بعد طول تردد،

فأضاعت على نفسها فرصة الاستعداد لتطبيق أهم المبادئ ولا سيما "التحشد" في الوقت والمكان المناسبين. ونحن نعرف أن الدول العربية، التي تضم ملايين المتشوقين، لم تحشد سوى ١٥.٠٠٠ جندي ميداني إداري في مقابل ٧٠.٠٠٠ مقاتل صهيوني كانوا يشكلون نسبة عالية جدًا من موارد بشرية محدودة جدًا. ومع ذلك ازداد عددهم تبعًا بالمسترحين من جيوش الحلفاء المنحلة وغيرهم من المرتزقة والمتواطئين. ولقد تدرب السكان والمستوطنون من حولهم وقدموا إسنادًا مباشرًا، بالإضافة إلى فيلق داود الذي تبناه الجيش البريطاني تدريبًا وممارسة في الشمال قبل نهاية الحرب العالمية الثانية.

إن معظم هذه المعلومات لم تحلل، وأجهزة الاستخبارات شبه مفقودة. لقد استهان العرب بهذا الأمر الجلل، الذي هو من أولى مبادئ الحرب، ولم يعدوا له عدته له بل حسبوها نزهة. ولقد نشرت الصحف خطابًا لقياء النقراشي في مؤتمر عاليه المذكور وقال إنه إذا وافق على الاشتراك في هذه المظاهرة فإنه غير مستعد للمضي فيها أكثر من ذلك !

وهناك مبدأ ثان من مبادئ الحرب الراسخة يشدد على المثابرة وتحقيق الهدف النهائي. وهو الآخر لم يُترك أمر معالجته لقادة الميدان وفق ما أتيح لهم من إمكانيات، بل تدخل في عملهم المباشر رؤسائهم الأعلون دون إحاطة بالموقف الحربي. ومن الأمثلة على ذلك الإشارة المفتوحة التي أصدرت على قائد القوة المصرية بأن "يأخذ المجدل اليوم". ومثال آخر، ذلك الأمر العاجل الذي صدر للقوة الأردنية باحتلال القدس الجديدة قبل أن يتوافر لها الحد الأدنى من التعزيز،

وتلقى المساعدة من المقاتلين المحليين والخبراء بالمسالك والمقتربات،
ودون أن يُستثمر الفوز العظيم في باب الواد والعمليات الجانبية
الأخرى.

لقد مرت بالعدو مرحلة ضعف طويلة لم تُستغل على خير وجه،
واطلعنا على ما اعترف به موسى دايان لعلى أبى نوار. لقد صرح
ابن القنصل الأمريكى فى القدس على ذلك الوضع المتأزم حين قال:
إن قرار مجلس الأمن الذى فرض الهدنة الأولى هو وحده الذى خلص
اليهود وحال دون سحقهم على أيدي قوات الجيوش العربية (١). ذكر
بيغن فى كتابه "الثورة" أن اليهود فى القدس تظاهروا داعين إلى إنهاء
الحرب بأى ثمن، ولكن الهدنة مكنتهم من الحصول على الطعام والماء
والسلاح والمتطوعين من الخارج. ولم يكن الوضع آنذاك فى تل أبيب
أحسن حالا، بل طالب المتظاهرون بالتسليم فخطب فيهم ابن غوريون
قائلا: لدى وعد قاطع من الإنكليز والأمريكان بأن الهدنة سوف
تفرض فى غضون ثلاثة أيام، فإن لم يتم ذلك فتعالوا واشنقوني هنا.

لاشك أن وضعنا بين الدول كان ومازال وسوف يظل يتطلب
التركيز على إقامة المنشآت الدفاعية فى باطن الأرض بمقدار ما هو
مشيد فوق سطحها). وهذا المطلب يسهل تحقيقه ضمن مخططات
البناء من قبل الملاك والعُمد والمخاتير ومجالس البلدية ومؤسسات
الإسكان. ولا يقتصر استخدام هذه المنشآت على زمن السلم بل تكون
قابلة للاستفادة منها على خير وجه فى زمن الحرب، إلى جانب
الملاجئ الواقية من أسلحة الدمار الشامل والمواقع الدفاعية وقواعد
الانطلاق. وأن تُزوّد فى الوقت المناسب بكميات متجددة من العقاقير

والأغذية الجافة والمحفوظة والمياه الصالحة للشرب. وأن يُدرَّب
الأهلون تدريبًا مكثفًا في أيام معدودات كل سنة في الهواء الطلق
والميادين خارج نطاق أعمالهم الرتيبة التي اعتادوا القيام بها في
المنزل والمؤسسة والمصنع والمزرعة. وهذه نزهة اجتماعية بالمجان
تروّح عن نفوس المواطنين وتجدد نشاطهم، كما تسعدهم بالتلاقى مع
رفقاء الطفولة وزملاء الدراسة. إنهم صغارًا وكبارًا، مقاتلين
ومقاتلات، لن يكونوا عبئًا بل عونًا ورديف مؤهل لدرء الأخطار
وحماية الذراري ومساندة جند الإسلام المنوط بهم أداء أشرف وأعظم
مهمة في الدفاع عن العقيدة والوطن والأمة وشعوبها كيلا تهيم على
وجوهها ويزداد نزوح الأهليين بدلًا من عودة المشردين الأوتل. لقد
ضحى الشهداء بأرواحهم التي لا تقدر بثمن، والممتلكات التي تقدر
بمئات المليارات. وحرى بنا أيضًا نحن شعوب الأمة دون استثناء أن
نخصص قبل فوات الأوان مئات المليارات في دفعة واحدة وحاسمة
نُحصِّل من مداخلنا ومن واردات المؤسسات طوال سنة متصلة أو
سنتين، شهرًا بعد شهر. ويكون ذلك وفقًا لمعايير دقيقة بإشراف لجان
مشتركة مسئولة تتولى توفير وتصنيع أتم وأحدث وسائل الوقاية
والدرع وأسلحة الردع غير الاستهلاكية والتأسيسية التي يخشى
الأعداء أن يتلقوا منها في يوم (ى) وساعة (صفر) الرد الفوري
والموازي والاستباقي على أى عدوان محتمل وقوعه فى الحاضر أو
المستقبل. ويجب إعداد القوات النظامية والخاصة والشعبية - حماة
الديار - لتنفيذ أولويات الخطط التعبوية والسوقية التي تكفل البقاء
مواطنين ومهاجرين ريثما تصل النجدات. وتكون مباغثة العدو
بالملايين والإطباق عليه من فوقه وتحتة وجوانبه، أى من الجبهات

الست بعضها أو كلها، وشلّ حركته وارتهانه، دون تهاون أو تخاؤل. إن صبرنا على شظف العيش سنة واحدة فقط يعودنا على الادخار ويضمن حصولنا على كامل الإيرادات في كل سنة دون ابتزاز أو تلاعب وصونها من التآكل والمضاربات العالمية والمغرضة ومن البذخ والعبث، ونكرم ذكرى شهدائنا الذين هبوا لنجدة فلسطين من الضيعة والكفر والنجع والحي وبذلوا الأنفس موجة في أثر موجة فداء لنا ومازالوا يستصرخوننا. لقد جادوا بأنفسهم وأموالهم وهذا أقصى غايات الجود، لكي لاتتهم على وجوهها قوافل أخرى من مشردى ومهجري شعوب أخرى من هذه الأمة. إننا بذلك نحول دون وقوع خسائر في صفوفنا، وإنما في صفوف العدو الذي يجزع على نسله ويصيبه الهلع والارتباك، وهذا ما حققناه في بداية ١٩٤٨م، فنحى المدنيين ونرد كيد الطامعين ونسترد هيبتنا وحقوقنا وكرامتنا الإسلامية التي لا تقدر بثمن، وتهون في سبيلها كل ثرواتنا الخاصة والعامة حماية لنا ولأبنائنا.

لقد استغلت "الدولة الصهيونية" وصانعوها فرقتنا فتغلبوا علينا في حرب سنة ١٩٤٨م وكذلك في عدوان سنة ١٩٥٦م بقيادة بريطانيا، وسنة ١٩٦٧م بقيادة أمريكا، ولكنهم مئوا بهزيمة نكراء في سنة ١٩٧٣م عندما نُسقت الجهود. وانهارت على رغوسهم رمال وخط بارليف الذي كلفهم لوحده مليارات الدولارات بالإضافة إلى مئات المليارات السنوية التي يستقطعونها من حساب دافعي الضرائب لديهم، ومعظمهم يستتكرون ذلك لأنه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

الفهرس

الصفحة

الموضوع

الفصل الأول

- ٦ - حملة عمرو بن العاص
- ٧ - القوات المسلحة العربية
- ٩ - القوات المسلحة المعادية
- ٩ - محور التقدم
- ١٢ - التحول من الانسحاب إلى الهجوم
- ١٣ - استطلاع الحصون من الداخل
- ١٧ - معركة أجنادين الفاصلة
- ١٧ - حصار القدس
- ١٨ - فتح مدينة أولى القبلتين

الفصل الثاني

- ٢٣ - حملة صلاح الدين الأيوبي
- ٢٣ - مقدمة
- ٢٤ - حركة نواه الحملات
- ٢٦ - المناوشات الرئيسية
- ٢٦ - في سبيل توحيد القوى
- ٢٧ - استئناف المناوشات
- ٢٩ - الموقف السوقي لدى المسلمين

الفهرس

الموضوع	الصفحة
- لدى الصليبيين	٣٠
- طرق الاقتراب	٣٠
- أساليب القتال	٣١
- إعلان الجهاد	٣٢
- حطين الفاصلة	٣٣
- استثمار الفوز	٣٦
- احتلال بيت المقدس	٣٨
- استئناف الجهاد	٤٠
- تصفيه الصليبيين	٤١

الفصل الثالث

- حملة المظفر قطز	٤٢
- والإسلاماه (صرخه) المعركة فى عين جالوت	٤٢
- التقدم للتماس	٤٣
- نظام معركة الجانبين	٤٥
- خطة الجيش العربى	٤٥
- خطة الجيش المغولى	٤٧
- مراحل المعركة	٤٨
- الدروس المستفادة	٥٠

الفهرس

الموضوع	الصفحة
– التوعية ورفع المعنويات	٥٠
– التعرض وعدم الاستكانة فى دفاع مستمر	٥٠
– الشجاعة والمثابرة	٥٠
– الموقف العام فى البلاد العربية والإسلامية قبل الجملة	٥١
– الحملة غيرت وجه التاريخ	٥٢
الفصل الرابع	
– حملة نابليون	٥٦
– فكا الكماشة	٥٦
– السرعة	٥٧
– الغزو	٥٩
– المخطط	٥٩
– خيبة الأمل	٦٠
– مجزرة ياف	٦١
– جبل نابلس يشور على الفرنسيين	٦٢
– تدخل البريطانيين	٦٤
– الإخفاق	٦٥
الفصل الخامس	
– من حملات الأرض المقدسة: حملة إبراهيم باشا	٦٧

الفهرس

الموضوع	الصفحة
- خطة فتح الشام	٦٧
- سير الحملة برا	٦٨
- حصار عكا / المرحلة الأولى	٦٩
- التوغل فى سوريا	٧٠
- التحول إلى عكا	٧١
- الشئون الإدارية	٧٤
- ثورة فلسطين	٧٥

الفصل السادس

- حملة اللبنى	٨٠
- مقدمة	٨١
- القصد من الحملة	٨٢
- الزحف والهجوم على غزة	٨٢
- محور الزحف	٨٣
- الهجوم على بئر السبع	٨٥
- المطار عبر السهل الساحلى	٨٧
- الاستيلاء على القدس	٩٠
- عبور نهر الاردن	٩٣
- الهجوم العام (موقعة مجدو)	٩٥

الفهرس

الموضوع	الصفحة
- الدروس المستفادة	٩٥
- حرب ١٩٤٨ م	٩٧
- قوات المقاومة	٩٧
- قوة الجهاد المقدس	٩٨
- جيش الانقاذ / التحرير	١٠٣
- القوات الخفيفة / كتائب المتطوعة	١٠٥
- القوات النظامية	١٠٩
- الجيش المصرى	١١٠
- الجيش السعودى	١١٦
- الجيش العراقى	١٢٤
- الجيشان السورى واللبنانى	١٢٦
- الاستنتاج والدروس المستفادة	١٢٧

تُعَدُّ دراسة الحملات الحربية عبر التاريخ موضوعاً
بالغ الأهمية . ولأنك في أن مبادئ الحرب تتطور وتتبدل
على مرّ العصور، وذلك يدفعنا إلى مراجعة التاريخ
العسكري، والاستفادة من التجارب الحربية النافعة.

وهذا الكتاب يقدم دراسة موجزة واضحة للحملات
الحربية التي وُجّهت إلى أرض فلسطين الحبيبة .

لقد تعرضت تلك البقعة المقدسة من العالم منذ فجر
التاريخ لمطامع الفاتحين من آشوريين وفراعنة وفرنس
ومقدونيين ورومان ، قبل أن يفتحها العرب المسلمون .

ثم تعرضت لغزو الصليبيين والتتار، وشهدت حملات
التحرير التي قادها كل من صلاح الدين ضد الصليبيين .
والملك المنظر قطز ضد التتار وأخيراً تعرضت فلسطين
لأقسى الحملات الاستعمارية في تاريخها على يد اليهود في
حرب ١٩٤٨م .

وإذا كانت دراسة التاريخ خير معلم لأبناء الشعوب،
منها يعتبرون ، وبها يتعظون ، فلعل الأجيال الحاضرة من
أبناء أمتنا العربية تجد في هذا الكتاب دروساً مستفادة ،
تنتفع بها في تحقيق مستقبل أفضل لهذه الأمة .

